الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique
جامعة 8 ماي 1945 قالمة
UNIVERSITE 08 MAI 1945-GUELMA
كلية الآداب واللغات
Faculté: des lettres et des langues

الرقم:.....
N° :.....

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة

الماستـــر LMD

(تخصّص: أدب جزائري)

حجاجية النفي في مقالات الإبراهيمي

- مقالات من مشاكلنا الاجتماعية أنموذجا -

مقدّمة من قبل الطّالبة:
عماري هاجر

تاريخ المناقشة
يوم:26 جوان 2018

اللّجنة المناقِشة

زوليخة زيتون	رئيسا	أستاذ محاضر "ب"	جامعة 8 ماي1945 قالمة
كمال حملاوي	مشرفا ومقرّرا	أستاذ مساعد " أ "	جامعة 8 ماي1945 قالمة
وفاء دبيش	ممتحنا	أستاذ مساعد " أ "	جامعة 8 ماي1945 قالمة

السّنة الجامعية: 2018/2017.

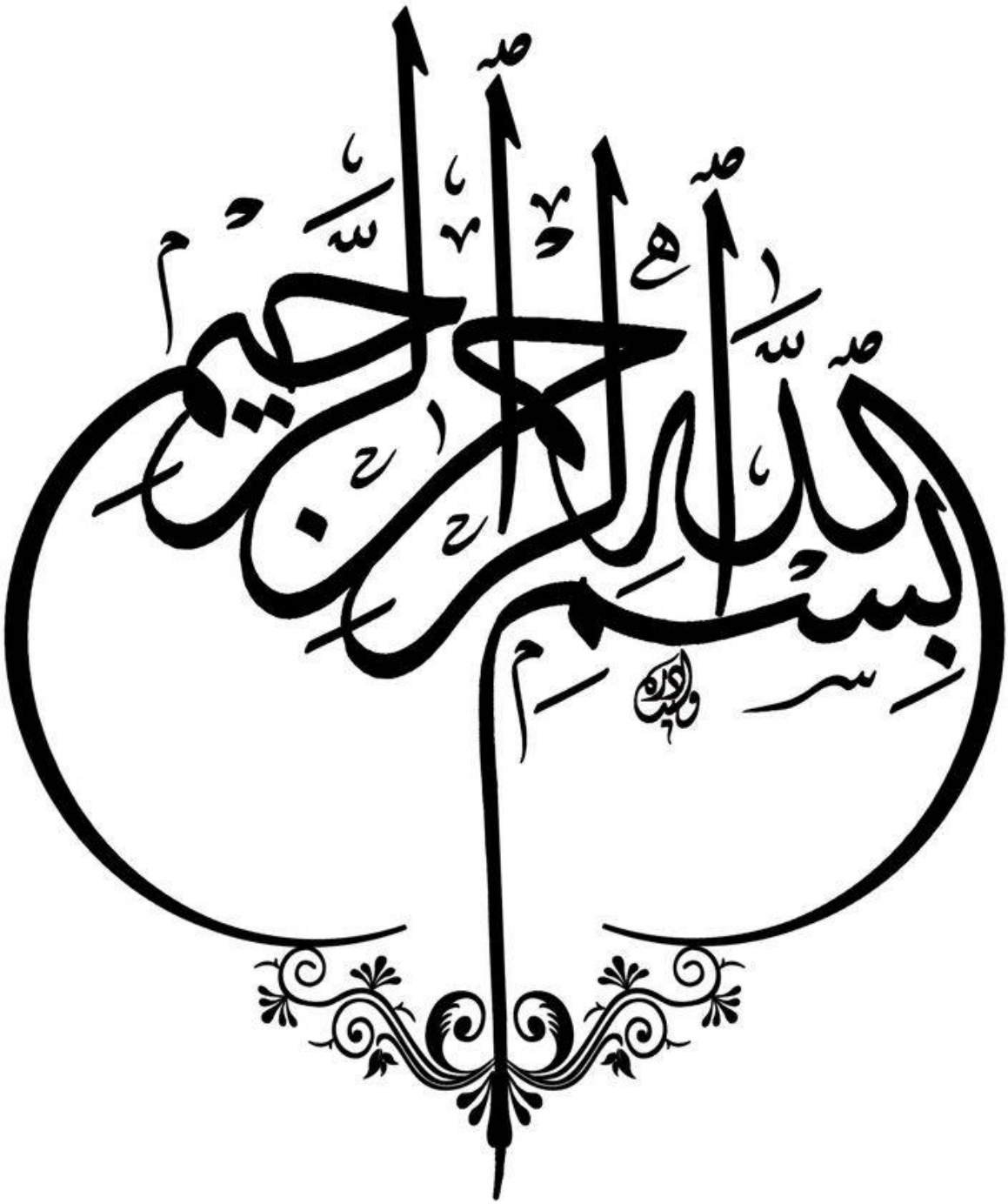
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و عرفان

لا يفوتني في هذا المقام أن أتقدّم بالشكر
الجزيل إلى صاحب الفضل بعد الله سبحانه وتعالى
المشرف على هذا البحث الأستاذ كمال حملاوي
جزاه الله خيرا على نصائحه الثّمينة وإرشاداته
القيّمة ومساندته المعنوية، وصبره على أسئلتي
الكثيرة والمتواصلة فمنه تعلّمت أنّ الإنسان
البسيط الذي يتواضع بعلمه هو أعظم النّاس.

كما أتوجّه بالشكر إلى كل من أمدّني بالعون الشخصي
لو بنصيحة أو كلمة طيّبة.

....

الحمد لله

الإهـــــــداء

إلى الذي أشعل أصابعه العشرة ليضيء لنا درب الحياة

"أبي"

إلى التي حملتني وهنا على وهن و لم أنفصل عنها سوى

بالجسد "أمي"

إلى رفقاء الرحم و الحليب والطفولة إلى المشيب

"إخوتي"

إلى أخواتي اللواتي أنجبتهن لي الأيام و المواقف

"صديقاتي"

إلى كل من ذكرهم قلبي و نسيهم قلمي

أهدي عملي المتواضع لكم جميعاً

هاجـــــــر.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمدا عبده ورسوله، وبعد:

اهتم العلماء والباحثون منذ القديم بموضوع الحجاج، ولازال يحظى بالاهتمام إلى يومنا هذا، ففي العقود الأخيرة زادت الكتب والمؤلفات التي اتخذت الحجاج موضوعا لها.

ويتنوع الحجاج حسب المقاربات الحجاجية إلى: حجاج بلاغي، وحجاج منطقي، وحجاج لغوي، وسندرس في بحثنا هذا الحجاج اللغوي والذي يهتم باللغة وكيفية مساهمتها في العملية الحجاجية، حيث سنركز على أحد أساليبها ألا وهو أسلوب النفي، حيث يستعمله المحاجِج بهدف التأثير في المتلقي وإقناعه، وذلك عن طريق رد فكرة، لإثبات نقيضها.

وبعد اقتناعنا بموضوع الحجاج تم اختيار مجموعة من خطب "البشير الإبراهيمي"في مدونته المرسومة بـ "آثار محمد البشير الإبراهيمي" والمقسمة إلى خمسة أجزاء، ومن خلال مجموعة مقالات جُمعت تحت عنوان "من مشاكلنا الاجتماعية" وتتمثل في أربع مقالات هي كالتالي:

1. الشّبان والزواج.
2. الطّلاق.
3. أعراس الشّيطان
4. الصّداق...وهل له حد؟

تم اختيار هاته المقالات متنا للدراسة، والتي عنونت بـ: حجاجية النفي عند الشيخ البشير الإبراهيمي في مقالات من مشاكلنا الاجتماعية "أنموذجا".

ومن خلال الأهمية الكبيرة لموضوع حجاجية النفي حاولنا الإجابة عن الإشكالية التالية:

- ما هي أهم أدوات النفي التي استعملها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مقالاته؟ وإلى أي مدى ساهت في توجيه الخطاب الوجهة المرجوة للتأثير والإقناع؟

قمنا باختيار هذه الدراسة لأسباب نذكر منها:

- رغبتنا في معرفة الدرس الحجاجي والتعمق في الآليات اللغوية (النفي) المحقّقة للإقناع.
- قلة الدراسات التي خصت خطب البشير الإبراهيمي بالتحليل والتمحيص لذلك قمنا باختيار هذه الدراسة من أجل إبراز دور أدوات النفي في التأثير والإقناع عند الشيخ الإبراهيمي.
- توجيه مشرفي الأستاذ الفاضل: حملاوي كمال إلى هذه الدراسة.

أما عن أهداف الدراسة فتتمثل فيما يلي:

- إبراز المقصد الحجاجي في خطب البشير الإبراهيمي.
- الوقوف على إحدى الآليات الحجاجية و الدور الذي تؤديه في الخطاب الإقناعي.

لذلك اقتضت خطة البحث تقسيمه إلى:

مقدمة: وهي بمثابة فاتحة البحث وصورته الناطقة بأهدافه وقيمه ودروب سيره منذ انطلاقه إلى غاية اكتماله.

الفصل الأول: وعنوانه: "مرجعيات البحث ومرتكزاته"، ضبطنا فيه المصطلحات التي لها مساس بالموضوع، بهدف تحديد معالمه، وتوضيح اللبس الذي تحمله مصطلحات البحث، فتضمن تعريف بالشيخ البشير الإبراهيمي، مفهوم الحجاج، ومفهوم النفي، وعلاقة الحجاج بالنفي.

الفصل الثاني: خصصناه لدراسة أدوات النفي التي استعملها الشيخ الإبراهيمي للإقناع _في مقالات من مشاكلنا الاجتماعية_ .

خاتمة: بمثابة حوصلة لأهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث.

ولكي يحقق هذا البحث الغرض المنوط به، لابد من منهج يقودنا للوصول إلى الغاية المرجوة، وبالتالي اخترنا المنهج الوصفي التحليلي لأنه المنهج المناسب لوصف المدونة(من مشاكلنا الاجتماعية)، وفي تحليل أدوات النفي.

ومن الصعوبات التي واجهتنا في هذه الدراسة نذكر:

- تعدد واختلاف المصطلحات المتعلقة بالحجاج والنفي.
- قلة الدراسات التي تناولت أعمال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وفي الختام، نتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذنا المشرف الّذي زوّدنا بالتّوجيهات السديدة، والذي منحنا من وقته الثمين، ودأبه على متابعة كل صغيرة وكبيرة في البحث، وتقويمه طوال مدة إشرافه، جزاه الله عنا كل خير وأمده في عمره، وبارك في جهده، ونسأل الله الصلاح والسداد والتوفيق، فما كان من صواب فمنه سبحانه ولا نحصي ثناء عليه، وما كان من تقصير فمن عندنا.

الفصل الأوّل:

مرجعيّات البحث ومنهجه

أولا/ نبذة عن المُحَاضِرُ (الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي):

1. مولده ونشأته.
2. مشواره العلمي والفكري.
3. آثاره ونماذج من شعره.
4. وفاته.

ثانيا/ مرجعيّات البحثِ ومرتكزاته:

1. مفهوم الحجاج:
   - ❖ لغة.
   - ❖ اصطلاحا.
2. مفهوم النفي.
   - ❖ لغة.
   - ❖ اصطلاحا.
3. حجاجية أسلوب النفي.

اختلفت الآراء وتباينت حول مفهوم الحجاج، وكثُرت التعاريف حول هذا المصطلح ويمكن رد ذلك إلى كثرة الحقول المعرفية التي تتناوله كالفلسفة والمنطق واللسانيات ونظرية التواصل والقانون، وامتد الأمر إلى علم النفس وعلم الاجتماع[1]، ولا يمكن الحديث عن الحجاج دون الحديث عن اللغة، فالحجاج من أهم المواضيع التي أنتجتها الدراسات اللغوية الحديثة باعتباره مجموعة من التقنيات والآليات الخطابية التي تَوجّه إلى المتلقي بغرض إقناعه والتأثير فيه[2].

ولتحقيق غرض الإقناع والتأثير لابد من رسم خطة ووضع إستراتيجية مدروسة، والتي تمثلت عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في اعتماده في مقالات _من مشاكلنا الاجتماعية_على أسلوب النفي باعتباره عامل حجاجي ساعده على استمالة الآخر واقناعه.

بالتالي سوف نحاول في هذا الفصل تناول المفاهيم الأساسية لكل من الحجاج والنفي وإبراز العلاقة الموجودة بينهما، وقبل ذلك سنتطرق إلى عرض نبذة حول المخاطِب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مولده ونشأته، ومشواره العلمي والفكري، وآثاره ونماذج من شعره، ووفاته.

---

[1] سهام سماح ونوال سماح، الأسلوب الحجاجي في القرآن الكريم سورة الكهف أنموذجا، مذكرة ماستر، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، ص10.

[2] امحمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى "عليه السلام" مذكرة ماجستير، جامعة السانية وهران، ص2.

أولا/ نبذة عن المخاطِب(الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمّي):

لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يدرس الخطاب الأدبّي بمعزل تّام عن ظروف نشأته؛ الّنفسّية والاجتماعّية والثّقافّية. فما دامت اللّغة، الّنطق ا لّرسمّي باسم الإنسان، فهي نقطة التقاء العلوم الإنسانّية، إذ تبدأ من الإنسان وتنتهي إليه[1].ولهذا جرت العادة أن يـُقدَّم الأدباء انطلاقا من سيرهم الذّاتّية، والأسرّية، والاجتماعّية، والتّنقّلات، والّرحلات... وأخيرا المؤلّفات، وسنة الوفاة. غير أنّ من الجميل- كما رأينا- أن يقّدم هؤلاء الأدباء إلى جمهور القّراء انطلاقا من أعمالهم، وتصريحاتهم، ومواقفهم... المبثوثة هنا وهناك وهنالك...[2].

يعدّ " الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمّي" مفخرة علماء الجزائر من أبرز أقطاب الحركة الإصلاحّية في الجزائر، وأحد أعظم رموز نهضتنا الثّقافّية والأدبّية، ولذلك فإنّ الحديث عنه يتشّعب، والقلم يحتار من أين يبدأ وماذا يختار![3]

محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي[4]: مجاهد جزائري، من كبار العلماء. ولد بقرية "رأس الوادي " بناحية مدينة سطيف بالشّرق الجزائري في 14 من يونيو عام 1889م، وفي

---

[1] وردة بويرانظواهر أسلوبيّة في لاميّة العرب للشّنفرى، ط1، دار من المحيط إلى الخليج، ودار خالد اللّحياني، المملكة العربيّة السّعوديّة- مكّة المكّرمة، 2016م، ص12.

[2] محفوظ كحوال: سلسلة الشّعر العربّي المعاصر -أروع قصائد نزار قبّاني، 2007م، نوميديا للطّباعةوالنّشر، قسنطينة، ص5.

[3]عبد الحميد هيمة: الآراالفّقديّة للشّيخ البشير الإبراهيمي في كتابه التّراث الشّعبّي والشّعر الملحون في الجزائر، مجلّة الأثر، العدد 17، جانفي 2013م، ص63.

[4] محمّد بـن بشير بـن عمر الإبراهيمي، آثَـارُ الإِمَام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْراهِيمِي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997م، ص 9، 13. وينظر كذلك: خير الّدين الزّركلي: الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002م، ص54.

بيت أسّس على التقّوى، من بيو ت العلم والدّين، وقد أتّم حفظ القرآن الكريم على يد عمّه الشّيخ المكّي الإبراهيمي الّذي اكتشف مواهبه المبكّرة، وكان له الفضل الأكبر في تربيته وتكوينه، حتّى جعل منه ساعده الأيمن في تعليم الطّلبة.

غادر الجزائر عام 1330هـ الموافق لـ1911م ملتحقا بوالده، وعندما استقّر بالمدينة المنّورة، درس فيها على كبار علمائها- الوافدين من كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ علوم التّفسير، والحديث، والفقه، والتّراجم، وأنساب العرب، وأدبهم، ودواوينهم، كما درس علم المنطق والحكمة المشرقّية، وأّمات كتب اللّغة والأدب، ثّم أصبح يلقي الّدروس للطّلبة في الحرم الّنبويّ، ويقضي أوقات فراغه في المكتبات العاّمة والخاصّة باحثا عن المخطوطات.

والتقى خلال إقامته بالمدينة المنّورة، في موسم الحج عام 1913م، بالإمام ابن باديس، وما من شكّ في أنّ تلك اللّقاءات شهدت ميلاد فكرة تأسيس جمعّية العلماء.

وفي سنة 1917م، انتقل الإبراهيمي إلى دمشق، حيث دعته حكومتها لتدريس الآداب العربّية بالمدرسة السّلطانية (مكتب عنبر) ، وهي المدرسة العصرّية الوحيدة آنذاك، بالإضافة إلى إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد في الجامع الأمويّ، وقد تخرج على يديه جيل من المثقّفين كان لهم أثر بالغ في الّنهضة العربّية الحديثة.

قّرر الإبراهيمي العودة إلى الجزائر سنة 1920م، وفي مخّيلته فكرة حركة تحيي الإسلام والعربّية في الوطن وتنشر العلم، وتبعث الأّمة، وأعجب بعد وصوله بالّنتائج المثمرة الّتي حققّها ابن باديس الّذي كان يقود حركة ثقافية وصحفية بمدينة قسنطينة، فأقام بمدينة

سطيف وأنشأ بها مدرسة ومسجدا بعد أن رفض الوظيفة الّتي عرضت عليه من طرف السّلطات الفرنسيّة، وتعاطى التّجارة، وبقي على اتّصال بابن باديس. وخلال هذه المرحلة تردّد على مدينة تونس حيث كان يقيم أصهاره، وحيث كانت له صداقات في الأوساط ا لعلميّة والأدبّية.

اتّخذ من مصر منطلقا لنشاطه، ورعى فيها أولى البعثات الطلابّية، وكان سفيرا للجزائر وصوتها المدوّي، يلقي المحاضرات والدّروس- خاصّة في مركزي الإخوان المسلمين والشّبان المسلمين- والأحاديث الإذاعّية قبل الثورّة التّحريريّة وفي أثنائها. وقد زار في هذا الشّأن -بعد مصر- كلّا من المملكة العربّية السّعودّية، والعراق، وسوريا، والأردن، والكويت، وباكستان.

وجّه يوم 15 من نوفمبر 1954م - أي بعد أسبوعين من اندلاع الثّورة- نداء إلى الشّعب الجزائريّ، يدعوه فيه إلى الالتفاف حول الثّورة المسلّحة، وخوض غمار الجهاد المقدّس، والتّضحية بالّنفس والّنفيس.

بعد الاستقلال، عاد الإبراهيمي إلى وطنه، وبقي فيه إلى أن وافته المنّية، وخلال هذه المرحلة اضطّر إلى التّقليل من نشاطه بسبب تدهور صحّته من جهة، وبسبب سياسة الّدولة الّتي شعر أّنها زاغت عن الاتّجاه الإسلامّي.

توفّي الشّيخ البشير الإبراهيمّي في 20 من مايو1965م، وترك لنا كتاباته الّتي "شكّلت صراعا عنيفا بين جمعّية العلماء المسلمين الّتي كان أحد أعضائها، وبين إدارة

الاحتلال الفرنسّي، وشمل هذا الصّراع ميادين متنّوعة؛ منها ما يتعلّق بحرّية المعتقد، ومنها لم يتعلّق بحرّية التّعليم، ومنها ما يتعلّق بالمحتلّ ذاته وجرائمه الّتي يرتكبها في حقّ الشّعب الجزائريّ، كما مثّلت كتاباته موقف الجمعّية ممّا يجري في العالم العربّي والإسلامّي، ووقوفها مع حقّ الأمم في تقرير مصيرها محاولة في الوقت ذاته إعادة بناء عنصر الثّقة في الخطاب العربي الإسلامّي، وإعادة تشييد دعائمه العقائدّية والفكرّية الّتي تكاد تغيب عنها شمس الإسلام والّنور والحقّ بفعل الاستعمار الّذي ما فتىء يحاصرها ويسعى إلى طمس معالمها"[1].

ونذكر منها[2]

1. بقايا فصيح العربّية في اللّهجة العامّية بالجزائر.
2. الّنقايات والّنفايات في لغة العرب.
3. حكمة مشروعية الزّكاة في الإسلام.
4. شعب الإيمان.
5. قصيدة شعرية رجزّية في ستّ وثلاثين ألف بيت، نظمها في منفاه بالصّحراء، وصف فيها الفرق المعاصرة وأولياء الشّيطان، ومكايد الاستعمار وهي أيضاً حول تاريخ الإسلام والمجتمع الجزائري.
6. عيون البصائر.

[1] يوسف الوادي: تجلّيات ثقافة المقاومة في فكر محّمد البشير الإبراهيمي وأدبه، جامعة الوادي، ص185، 186.

[2] أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش – المغرب، ط1، 462/9.

7. رسالة الطّبّ.

8. 'نظام العربيّة في موازين كلماتها'.

9. محاضرات وأبحاث وفتاوى، جمعها أحد تلاميذه.

10. وقد طبعت مجموعة تحت عنوان: 'آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي' في خمس مجلّدات.

وفيما يأتي نماذج من شعره:

لغة العرب[1]:

نغارُ عن أحسابَنا أن تُمتهن ... والحُرُّ عن مجدِ الجدودِ مؤتَمن

ولُغة العربِ لسانٌ مُمْتَحَن ... إنْ لَمْ يَذُد أبناؤُه عنه، فَمَن؟

افتراء مستشرق[2]:

وهلْ أتاكَ نبأُ المَغْرورِ ... وما أتى من كذبٍ وزُورِ

معلولةَ الآراءِ والأنظارِ ... عاريةُ السّوْءاتِ للذُظّارِ

لقيطةٌ لقيها كفاحِي ... مريبة كالّنسل من سِفاحِ

جانبت الحقائق الملموسَهْ ... وجافت الوقائع المحسوسَهْ

ضمّنها أحكامه على الأمم ... تبًّا له من حاكم وما حكم

مقدّمات بعدها نتائج ... لكّنها محلولة الوشائج

عدا على التّاريخ وهو أبلج ... لكن بيان المفترين يحلَج

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي، ص485.

[2] المصدر السابق، 1 / 413.

في الأخير يمكن القول: يرحل العظماء لكن تبقى أعمالهم تخلّد أسماءهم.

ثانيا/ مرجعيّات البحث ومرتكزاته:

1. مفهوم الحجاج:

1.1. لغة:

إنّ المتفحّص لمعاجم اللّغة العربيّة يجد أنّ لفظة الحجاج تشير- في مدلولها اللّغويّ- إلى عدّة معان، نذكر منها:

القصد: إذ جاء في مجمل اللّغة لابن فارس أنّ " الحجُّ: القصدُ، وكلّ قصد حجٌّ. ثّم اختصّ بهذا الاسم القصد إلى بيت الله الحرام"[1]. وفي نفس المعنى يقول ابن منظور في لسان العرب: " حجج: الحجّ: القصد. حجّ إلينا فلان أي قدم؛ وحجّه يحجّه حجّا: قصده. وحججت فلانا واعتمدته أي قصدته. ورجل محجوج أي مقصود"[2].

البرهان: جاء في المعجم الوسيط أنّ " الحجّة: الدّليل والبرهان"[3]. وفي مختار الصّحاح ورد أنّ "(الْحُجَّةُ) الْبُرْهَانُ وَ(حَاجَّهُ) فَحَجَّه) مِنْ بَابِ رَدَّ أَيْ غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ، وَقَدْ (حَجَجْتُهُ) عَلَيْهِ أَيْ أَقَمْتُ الْحُجَّةَ "[4].

---

[1] أحمد بن فارس بن زكريّاء القزوينيّ الرّازي: مجمل اللّغة (مادّة ح ج ج) ، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، ط2 ، مؤسّسة الرّسالة- بيروت، 1406 هـ - 1986 م، 221/1.

[2] جمال الّدين ابن منظور: لسان العرب (مادّة ح ج ج)، ط3، دار صادر - بيروت، 1414 هـ، ج2، ص228.

[3] إبراهيم مصطفى، أحمد الزّيّات وآخرون: المعجم الوسيط (مادّة ح ج)، د.ط ، دار الّدعوة، د.ت، ص156.

[4] زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصّحاح (مادّة ح ج)، تحقيق: يوسف الشّيخ محمّد، ط5، المكتبة العصريّة-الّدار النّموذجيّة، صيدا- بيروت، 1420هـ - 1999م، ص34.

الدّليل: وفي هذا يقول الجرجاني في التّعريفات:" الحجّة: ما دلّ به على صحّة الدّعوى. وقيل: الحجّة والدّليل واحد"[1].

الخصومة والجدل: يقول ابن منظور: " الخصومة: الجدل؛ خاصمه خصاما ومخاصمة: غلبه بالحجّة، والخصومة الاسم من التّخاصم والاختصام. والخصم: معروف، واختصم القوم وتخاصموا، وخصمك: الّذي يخاصمك، وجمعه خصوم، ويقال: جادلت الرّجل فجدلته جدلا أي غلبته. ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام. وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالا، والاسم الجدل، وهو شدّة الخصومة.. والجدل: مقابلة الحجّة بالحجّة"[2].

مهما يكن من أمر فإنّ الحجاج والجدل يكثر ورودهما مترادفين في اصطلاح القدماء؛ من ذلك أنّ أبا الوليد الباجي سمّى كتابه : **"المنهاج في سبيل الحجاج"** مستخدما في العنوان لفظة "حجاج" كما نرى، لكنّه في المقدّمة ينعته بكونه" كتابا في **الجدل**"، وكذلك السّيوطي في" الإتقان في علوم القرآن" جعل الحجاج والمحاجّة والاحتجاج على أنّها مرادفة للجدل وتسدّ مسدّه[3].

لكنّ اعتبار القدماء وبعض المحدثين الحجاج مرادفا للجدل ومراوحتهم بينهما في الاستعمال واستخدامهم أحدهما معطوفا على الآخر باعتبارهما مترادفين، من شأنه أن يضيّق

---

[1] الجرجانيّ التّعريفات، ضبطه وصحّحه جماعة من العلماء بإشراف النّاشر، ط1 دار الكتب العلميّة بيروت - لبنان، 1403هـ - 1983م، ص82.

[2] ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص180.

[3] ينظر: عبد الرّحمن بن أبي بكر ، جلال الدّين السّيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دط، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1394هـ- 1974 م، 34/4، 60.

مجال الحجاج ويغرقه في الجدل، والحال أنّ الحجاج أوسع من الجدل، فكل جدل حجاج وليس كلّ حجاج جدلا[1].

بالرّجوع إلى الأصل اللّاتينيّ للمصطلح نجد كلمة "**Argument**" من الفعل اللّاتينيّ "**Arguer** " وتعني: " جعل الشّيء واضحا ولامعا وظاهرا"[2].

وردت في القرآن الكريم " كلمات حاجّ وحجّة في مواضع عدّة وكلّها كانت في إطار من المناظرة والجدال الّذي يقع بين الخصوم، ويهدف إلى **تحقيق الغلبة والانتصار** في النّقاش وفي المواقف والآراء"[3]:

- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي **حَاجَّ** إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[4].
- ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ **حُجَّةٌ** إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي

---

[1] عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، ط2، دار الفارابي بيروت- لبنان، 2007م، ص ص14- 18.

[2] كريستيان بلانتان، ترجمة عبد القادر المهيري، مراجعة عبد القادر صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2008م، ص9.

[3] زكريّا بشير إبراهيم: حول مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، دراسات دعويّة، العدد 04، يوليو 2000م، ص.89

[4] البقرة: 258

عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[1].

- ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ **حُجَّةٌ** بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].
- ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا **حُجَّةَ** بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[3].
- ﴿ قُلْ **أَتُحَاجُّونَنَا** فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾[4].
- ﴿ وَ**حَاجَّهُ** قَوْمُهُ قَالَ **أَتُحَاجُّونِّي** فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[5]
- وفي حديث ذكر الدّجال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:" غَيْرَ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا **حَجِيجُهُ** دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ **حَجِيجُ** نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"[6].

---

[1] البقرة: 150.

[2] النّساء: 165.

[3] الشّورى: 15.

[4] البقرة: 139.

[5] الأنعام: 80.

[6] مسلم بن الحجّاج أبو الحسن القشيري النّيسابوري: المسند الصّحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دط، دار إحياء التّراث العربي – بيروت، د.ت، 2250/4.

يتّضح من خلال الآيات الكريمة والحديث النّبويّ الشّريف أنّ الحجاج نوع من الجدل الهادف، فـ" ليس الحجاج لهوا وليس هو جدال من أجل التّسلية وتمضية الوقت، أو حتّى مجرّد إظهار العضلات الذّهنيّة والقدرات الحواريّة الجدليّة"[1] ، إنّما هو انتصار للحقّ ومحافظة على المصلحة العامّة. ذلك أنّ الغاية منه مخاطبة العقول لتدبّر الأمور، ومن ثّم الاهتداء إلى الصّواب، ولذلك فإنّ " نتيجة الحجاج أمر هامّ وجادّ؛ فإمّا ربح وفير: سعادة وفلاح ونصر في الدّنيا ونجاة في الآخرة، وإمّا خسارة فادحة: هزيمة وخذلان وشقاء في الأرض، ويوم القيامة يردّون إلى عذاب السّعير"[2].

من هنا نصل إلى أنّ مدلولات الحجاج – اللّغويّة- اختلفت وتشابكت بين **القصد، والجدل، والبرهان، و اللّليل، والخصومة، والغلبة، والمجادلة بسبب خلاف الوجهة أو الرّأي.**

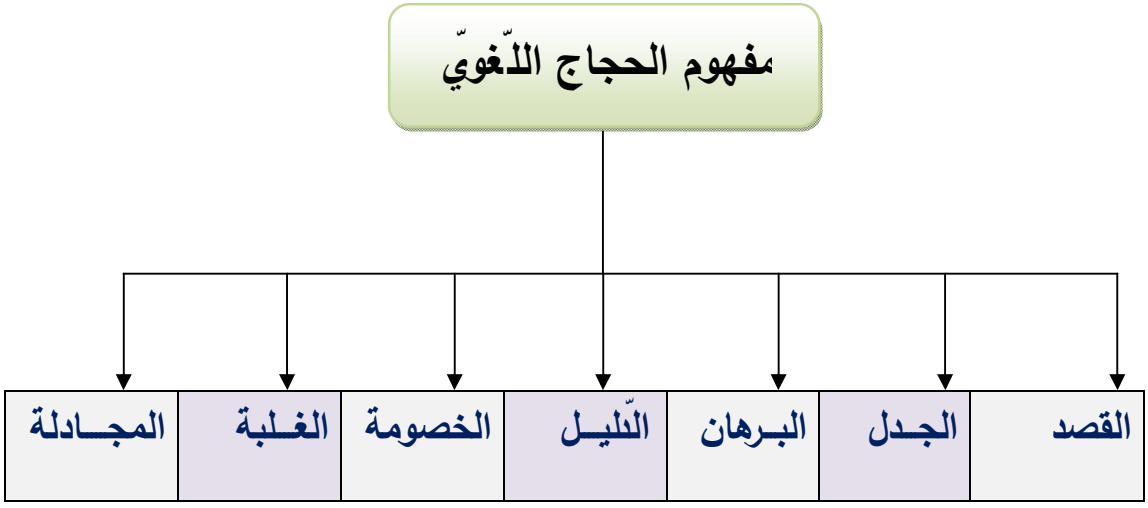

[1] زكريّاء بشير إبراهيم: حول مفهوم الحجاج ، ص92.

[2] المرجع نفسه ، ص90.

2.1. اصطلاحا:

يذهب **حبيب أعراب** إلى أنّ" مفهوم الحجاج (المحاجة) من المفاهيم المثيرة للالتباس بالنّسبة للباحث عن ضبطه وتدقيقه، ويُرجع ذلك إلى عدّة عوامل أهمها[1]:

- تعدّد مظاهر الحجاج وتنّوعها: الحجاج الصّريح، الحجاج الضّمني..
- تعدّد استعمالات الحجاج وتباين مرجعّياتها: الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة المنطق، التعّليم...
- خضوع الحجاج في دلالته لما يمّيز ألفاظ اللّغة الطّبيعّية من رخوة وليونة تداولّية، وكذلك من تأويلات متجّددة وطواعية استعمالّية.

ولهذا يصعب تحديد مفهوم الحجاج بشكل سريع، وتلقائّي، ودقيق.

تناول الكثير من علماء العرب القدامى والمحدثين مصطلح الحجاج، كلّ حسب توجّهه وزاوية نظره، ولعلّ أبرزهم **أبو هلال العسكريّ** الّذي ربط الشّعر بالوظيفة الحجاجّية فقال: "واللّطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النّافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبّية المستصعبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجّة؛ فتخلّص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذّنب، من غير أن تهيج وتقلقه، وتستدعي غضبه، وتستثير حفيظته"[2].

---

[1] حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي" عناصر استقصاء نظري"، مجلّة عالم الفكر، العدد1، 1يوليو 2001م، الكويت، ص97، 98.

[2] العسكري: الصّناعتين، تحقيق: علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصريّة، بيروت، 1419 هـ، ص51.

ويقول **السّكّاكي:** "علـمـا منّا بـأنّ من أتقـن أصـلا واحـداً من علـم البيان كأصل التشّبيه أو الكناية أو الاستعارة، ووقف على كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به، أطلعه ذلك على كيفية نظم الدّليل"[1].

يذهب **أبو الوليد الباجي** إلى أنّ الحجاج " يعدّ علما من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا، لأنّه السّبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحقّ من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجّة ولا اتّضحت محجّة، ولا علم الصّحيح من السّقيم ولا المعوجّ من المستقيم"[2].

أمّا **عبد الهادي بن ظافر الشّهري** فيعرّفه بأنّه :"الآلية الأبرز الّتي يستعمل المرسل اللّغة فيها، ويجسّد عبرها استراتيجيّة الإقناع"[3].

ويذهب **محمّد العبد** إلى أنّ الخطاب الحجاجيّ - في شكله الرّئيس- يبنى على مكّونات ستّة، هي[4]:

1. **الدّعوى أو النّتيجة**: هي مقولة تستهدف استمالة الآخرين. تذكر صراحة وقد تضمّن.

---

[1] يوسف بن أبي بكر بن محمّد بن علي السّكّاكي:مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه: نعيم زرزور، ط2 دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، 1407 هـ - 1987 م، 435.

[2] أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد تركي، ط3، دار الغرب الإسلامي- بيروت، لبنان، 2000م، ص8.

[3] عبد الهادي بن ظافر الشّهري:استراتيجيّات الخطابمقاربة لغويّة تداوليّة، ط1 دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي- ليبيا ، 2004م، ص 456.

[4] محمّد العبد:النّصّ الحجاجي العربي، مجلّة جذور، ج21، مج9، رجب 1426هـ - سبتمبر 2005، ص243.

2. **المقدّمات أو تقرير المعطيات:** تقريـر يصنـعـه المجـادل عن أشـخـاص أو أحوال أو أحداث. وينبغي للمقدّمات أن ترتبط بالدّعوى ارتباطا منطقيّا، حتى تصلح لتدعيمها.

3. **التبّرير:** بيان للمبدأ العام الّذي يبرهن على صلاحيّة الدّعوى وفقا لعلاقاتها بالمقدّمات.

4. **الدّعامة:** كلّ ما يقدّمه المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلّة وقيم... حتّى يجعل المقدّمات والتّبريرات أقوى مصداقيّة عند المستقبل.

5. **مؤشّر الحال:** كلّ ما يقدّم من تعبيرات تظهر مدى قابليّة بعض الدّعاوى للتّطبيق نحو: من الممكن، من المحتمل، على الأرجح...

6. " ذلك الخطاب الصّريح أو الضّمني الّذي يستهدف الإقناع والإفحام معا، مهما كان متلقّي

التّحفّظات أو الاحتياطات: هي الأساس الّذي ينهض عليه الحكم بعدم مقبوليّة الدّعوى.

يشير الحجاج إلى هذا الخطاب، ومهما كانت الطّريقة المتّبعة في ذلك. وهذا المعنى هو الّذي يأخذ به أبرز منظّري " نظريّة الحجاج المعاصرة" **كشاييم بيرلمان وميشال ماييرّ**[1]. ويعرّف هذا الأخير الحجاج بكونه " جهدا إقناعيّا؛ ذلك أنّ كلّ خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجّه إليه"[2].

[1] حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي" عناصر استقصاء نظري"، ص99.

[2] زكريّاء السّوتي: بلاغة الإقناع في الخطاب التّفسيريّ للبيضاوي، المغرب، ص55.

يرتبط الحجاج عند **بيرلمان وتيتيكاه** بالغاية: " غاية كلّ حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجع الحجاج ما وفّق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السّامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفّق على الأقلّ في جعل السّامعين مهيّئين لذلك العمل في اللّحظة المناسبة"[1].

أمّا عن مفهوم الحجاج عند **أرسطو** فقد ربط بين خاصّة الكلام والتّعبير عند الإنسان وبين الإقناع؛ فالإنسان لأنّه متكلّم معبّر يبحث بطبعه عن الإقناع، ويحاوله، ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن من النّاس بوسائل مستمدّة من التّفكير الّذي حوبي به من الطّبيعة. وقد أعطى أرسطو في درسه للخطابة اهتماما كبيرا لجانبها العقلي والنّفسي، محاولا الموازنة بين وسائل الإقناع ووسائل التأّثير[2].

من خلال التّعريف اللّغويّ والاصطلاحيّ نستنتج أنّ الحجاج **نوع من الخطاب الإنساني المتاح باللّغة المكتوبة والمنطوقة، يلجأ إليه الفرد بهدف إقناع الآخرين بفكرة ما، أو رأي مغاير لآرائهم، مستخدما أسلوبا دفاعيّا، ومبرّرا رأيه ببراهين وأدلّة.**

---

[1] عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، ط1، مسكيلياني للنّشر والتوزيع، تونس، 2011م، ص244.

[2] هاجر مدقن: الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه دراسة تطبيقيّة في كتاب المساكين للرّافعي، مذكرة من متطلّبات شهادة الماجستير في الأدب العربي، كلية الأداب والعلوم الإنسانيّة، قسم اللّغة العربيّة وأدابها، جامعة ورقلة، 2002-2003م ، ص16- 17.

2. مفهوم النّفي:

1.2. لغة:

تحمل كلمة "نفي" في المعاجم العربيّة عدّة معاني أهّمها **الطّرد والإبعاد والتّنحية**، فقد ورد في معجم مقاييس اللّغة في مادّة (ن، ف، ى) بمعنى" تعرية شيء من شيء وإبعاده عنه، ومنه النّفاية الرّديء، نفي الرّيح ما ترميه من التّراب حتّى تصير في أصول الحيطان، ونفي المطر ما تنفيه الرّيح أو ترشّه"[1].

أّما في معجم لسان العرب لابن منظور فقد ورد" نفى الشّيء وينفي نفيا تنّحى، ونفيته نّحيته، ونفى الرّجل عن الأرض ونفيته عنها طردته فانتفى، وتنافت الآراء والأحكام تعارضت وتباينت"[2].

فجاءت- هنا- بمعنى **الطّرد** ، وقد جاء في المعجم الوسيط" نفاه جحده وتبّرأ منه، ونفاه أخبره أّنه لم يقع، وانتفى شعره تساقط، وانتفى الشّجر من الوادي انقطع وانعدم"[3].

وردت هذه اللّفظة في القرآن بمعنى **الطّرد والإبعاد** في قوله تعالى:﴿ إِنَّما جَزَاُء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[4].

---

[1] أحمد بن فارس الرّازي: معجم مقاييس اللّغة: تحقيق عبد السّلام هارون، دار الجيل - بيروت ، ط1، 1999م، ج5، ص456.

[2] جمال الدّين بن منظور بن مكرم لسان العرب، تحقيق يوسف الخيّاط، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، 1988م، ج6، ص696، 697.

[3] مجمع اللّغة العربيّة:المعجم الوسيط، دار المعارف المصريّة، ط2، 1972م، ج2، ص943.

[4] المائدة : 33.

2.2. اصطلاحا:

عند البحث في الكتب النحوية القديمة نجد أنهم قلّ ما تعرّضوا لتعريف النفي تعريفا اصطلاحيا، لأنه لا يوجد في مصنفاتهم باب اسمه "النفي"[1].

أّما في كتب الدّراسات القرآنيّة فنجد بعض التّعاريف – ولو كانت قليلة- مثل قول الزّركشي:" النّفي هو شطر الكلام؛ لأنّ الكلام إّما إثبات وإّما نفي، وفيه قواعد: الأولى في الفرق بينه وبين الجحد، قال ابن الشّجري: "إذا كان النّافي صادقا فيما قاله سّمي كلامه نفيا، وإن كان يعلم كذب ما نفاه كان جحدا، فالنّفي أعّم، ولا يجوز أن يسّمى النّفي جحدا... ومن العلماء من لا يفّرق بينهما، والأصل ما ذكرته"[2].

يورد ابن يعيش تعريفا للنّفي فيقول:" اعلم أنّ النّفي إّنما يكون على حسب الإيجاب لأّنه إكذاب له، فينبغي أن يكون على وفق لفظه لا فرق بينهما، إلّا أنّ أحدهما نفي والآخر إيجاب"[3].

أما المخزومي فيعرفه بقوله :" أسلوب نقض وإنكار، يستخدم لدفع ما يتردّد في ذهن المخاطب"[4].

---

[1]توفيق جعمات، النفي في النحو العربي منحى وظيفي وتعليمي القرآن الكريم عينة، مذكرة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ص1.

[2]الزّركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محّمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ج2، ص376.

[3]ابن يعيش(موفّق الّدين أبو البقاء يعيش بن علّي)شرح المفصّل للزّمخشري، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 2001م، ج5، ص31.

[4]مهدي المخزومي:في النّحو العربّي - نقد وتوجيه، دار الرّائد العربي، بيروت، ط2، 1986م، ص246.

من خلال هذا التّعريف يمكننا القول أنّ النّفي يؤدّي وظيفة من صميم العمليّة الحجاجيّة فمن خلاله يعمد المحاجِج إلى توجيه المحاجَج إلى ما يريده[1] قصد الإقناع

3. حجاجية أسلوب النفي:

تعد أدوات النفي في اللغة العربية (لا، ولن، ولم، وليس، وما) مورفيمات توجه القول والمتلقي معاً، فبها يحقق المتكلم الوظيفة الحجاجية للغة والتي تتمثل في إخضاع المتلقي وتسليمه عبر توجيهه بالملفوظ إلى النتيجة "ن".[2]

خصص ديكرو للنفي نصيب الأسد في نظرية السلالم الحجاجية، وقد اعتبره محدِّد لوجهة الخطاب الحجاجية، كما اعتبره أدق العوامل في تحديد منزلة الملفوظ من السلم الحجاجي، ولطالما ينطلق من مثالين هما:

1. لم يقرأ زيد جميع روايات بلزاك.
2. قرأ زيد جميع روايات بلزاك.

يعلق ديكرو على المثالين معتبرا المثال الأول موجهاً نحو نتيجة سالبة من صنف أن "زيدا" لا يعرف بلزاك جيدا، في حين أن المثال الثاني عكس ذلك وحسب رأي ديكرو فالمثال الثاني موجه نحو نتيجة إيجابية من صنف أن زيد يعرف بلزاك.[3]

---

[1] د.عزالدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة، ط1، مكتبة علاء الدين، صفاقس2011، ص47.

[2] المرجع السابق، ص47.

[3] المرجع نفسه، ص49،50.

لا يمكن إدراك عاملية النفي الحجاجية إلا بإدراك النتيجة التي يريد المتكلم توجيه متلقيه إليها، لذلك كان ديكرو في معرض حديثه عن النفي يركن دائما إلى رائز المفهوم، وهو لماذا قال المتكلم ما قال؟ وذلك من أجل أن يحدد للملفوظ درجته الحقيقية من السلم الحجاجي، فتتحدد النتيجة التي يقصد المتكلم توجيه المتلقي إليها.

النفي كما يرى الدكتور عز الدين النّاجح تلفّظ على تلفّظ فهو توجيه على توجيه لذلك بمجرد إدماج عامل النفي تتحدد النتيجة "ن" بسرعة ولا يجد المتلقي حرجا أو تعب في إدراك المفهوم بل إن عامل النفي كمفهوم علاوة على وظيفته التوجيهية في الخطاب الحجاجي يرى ديكرو أن للنفي قيمة مضافة وهي كونه ضروري لوصف البنية الدلالية العميقة للملفوظ الذي يبدو غير منفي.[1]

[1] المرجع السابق، ص50، 51.

الفصل الثّاني:

جماليّة النّفي عند الأبيرهيمي

النفي وحجابيته:

1. عـامـل النّفي (لا).
2. عامـل النّفي (لم).
3. عامل النّفي (ليس).
4. عامل النّفي (غير).
5. عامـل النّفي (ما).

استعمل البشير الإبراهيميّ في مقالاته –من مشاكلنا الاجتماعيّة- عدّة وسائل وعوامل حجاجيّة، وذلك بهدف استمالة المتلقّي وإقناعه، وسنسلّط الضّوء في بحثنا هذا على عامل حجاجيّ هامّ ورد بكثرة في خطب الإبراهيمي ألا وهو عامل النّفي؛ إذ بواسطته تتحقّق الوظيفة الحجاجيّة للّغة، ممثّلة في إنكار قضيّة، ودحض رأي ، أو ردّ فكرة، أو تكذيب ادّعاء، أو هدم تصوّر.. بقصد إثبات نقيض ذلك، وإقامة ما يخالفه"[1].

تندرج تحت عنوان (من مشاكلنا الاجتماعيّة) أربع مقالات متسلسلة كالآتي:

1. الشّبان والزّواج.
2. الطّلاق.
3. أعراس الشّيطان.
4. الصّداق... وهل له حدّ؟

عند دراستنا لها – والّتي أردنا من خلالها الوقوف على أسلوب النّفي بوصفه أسلوبا حجاجيّا- وجدنا أنّ الخطيب قد استعمل أدوات نفي متنّوعة، وهي حسب التّواتر كالآتي: (لا، لم، ليس، غير ،ما).

1. عامل النّفي(لا):

وردت أداة النفي (لا) بكثرة في مقالات (من مشاكلنا الاجتماعيّة) مقارنة بباقي الأدوات،فوظّفت سبعا وستّين مرّة (67 مرّة)، ويمكن ردّ ذلك إلى " كونها تصلح لنفي

[1] مالك عوّادي: الخطاب الحجاجيّ عند الإمام محمّد الغزالي، رسالة دكتوراه، إشراف الدكتور بلقاسم بلعرج، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، ص72.

الأسماء والأفعال الماضية والمضارعة، والجمل، وإلى كونها تأتي عاملة مرّة، وغير عاملة أخرى؛ فالعاملة عندما تكون نافية للجنس أو مشبّهة بـ(ليس)، وغير العاملة حين تجيء جوابيّة أو عاطفة"[1].

نبدأ بالمثال الأوّل الّذي تضمّن النّفي بـ (لا)، وهو قول الشيخ الإبراهيمي"تعاني الأمّة الجزائريّة وجاراتها المتّحدة معها في الدّين والجنس، المقاربة لها في العادات والمصطلحات، عدّة مشاكل اجتماعيّة، **لا** يسع المصلحين إغفالها و**لا** السكوت عنها بعد ظهور آثارها"[2]. والّذي يصرّح هنا بما تعانيه الأمّة الجزائريّة من مشاكل لم يغفل عنها المصلحون الّذين يسعون بدورهم إلى إصلاح ما فسد في المجتمع الجزائريّ، فبقوله:" **لا** يسع المصلحين إغفالها" هو بصدد نفي ودحض فكرة إغفال المصلحين للمشاكل الّتي تعانيها الأمّة الجزائريّة، أما بقوله:" و**لا** السّكوت عليها بعد ظهور آثارها"، فهو هنا ينفي سكوت المصلحين على المشاكل الاجتماعيّة الّتي تعانيها الأمّة الجزائريّة وهي: مشكلة الزّواج أو بالأحرى التّأخير في الزّواج الّذي يترتّب عنه عدّة آثار يوضّحها الإبراهيمي في مقالاته.

في المثال الثّاني نلمس النّفي بـ (لا) في قوله:" إنّ أمّتنا ليست منسجمة العوائد في أمورها الحيويّة، وليست مطبوعة على قالب واحد في تكوينها الاجتماعيّ ولذلك نجد البُداة

[1] مالك عوّادي: الخطاب الحجاجيّ عند الإمام محمّد الغزالي، ص83.

[2] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمام مُحَمَّد البَشِير الإِبْراهِيمِي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997م،ص293.

المتّصلين بالفطرة **لا** يحسّون بهذه المشكلة "[1]، فهو ينفي إحساس المتخلّفين بمشكلة الزّواج، وقد أردف ذلك بقوله:" بل تؤدّي بهم البساطة إلى الخروج عن حدّ الاعتدال تفريطًا، فيزوّجون أولادهم قبل سنّ البلوغ" وبذلك أكّد المُحاجج نفيه.

أما المثال الثالث يقول:" ومنهم من يعتذر للعزوبة بأنّه **لا** يجمل به أن يتزوّج من الجاهلات الأمّيات"[2] ، أي أنّ هناك بعض الشّبّان – في نظر البشير الإبراهيمي- يعزفون عن الزّواج لسبب هو أنّه لا يجمل بهم الزّواج من الجاهلات الأّميات، فهنا نفي لإثبات رأي الشّباب في الزّواج.

يمضي الإبراهيمي فيقول:" و**لا** نلوم أولئك و**لا** هؤلاء، لأنّ الحضارة الغربّية أفسدت أذواقهم"[3] ، فهو هنا يعذر الشّباب على عزوفهم عن الزّواج، ويرجع سبب ذلك إلى الحضارة الغربّية الّتي أزاغت أفئدتهم، وأفسدت أذواقهم _على حدِّ تعبيره_، فهو ينفي لومه لهم وهو يقصد هنا جميع الشّباب سواءً الشباب المثقف أو غير المثقف.

يواصل حديثه عن الشّباب والزّواج فيقول:" .. وجعلت البعض يأنف من الفضيلة إذا كانت أمّية، و**لا** يأنف من الرّذيلة إذا كانت متعلّمة"[4] فهو يقصد بذلك أنّ الحضارة الغربّية

---

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْرَاهِيمِي، ص293.

[2] المصدر السابق، ص294.

[3] المصدر نفسه، ص294.

[4] المصدر نفسه، ص294.

جعلت الشّاب الجزائريّ ينفر من المرأة الأّميّة ولو كانت فاضلة وذات خلق، غير أّنه ينفي نفوره من المتعلّمة حتّى لو كانت غير متخلّقة.

يردف المحاجج بقوله:"**لا** نلومهم وإّنما نلوم أنفسنا"[1] فقد نفى المُحاجِج لومه للشّباب، وهذا دليل على دهائه ورضوخه لأمر الواقع، فهو يلوم نفسه والمجتمع الإسلاميّ برّمته لأّنه لم يهتّم بتعليم المرأة وتنشئتها تنشئة إسلاميّة ناجعة، لكي يعود الشّاب إلى أصله فيقول:"و**لا** يفلّ الحديد إلّا الحديد"[2] أي لا يصلح حال الشّباب إلّا إذا بادر المصلحون بالإصلاح، ويقول أيضا:" وإّن عذرهم لبيّن و**لا** تلحقهم في هذا ملامة، وإّنما اللّوم على هذا المجتمع الفاسد الّذي نبذ هداية الّدين"[3] فقد ردّ الإبراهيميّ اللّوم على المجتمع الّذي نعته بالفاسد ونفى بذلك إلحاق الملامة بالشّباب.

يقول الإبراهيمي في مثال آخر:" راعى الإسلام- وهو دين الفطرة- كل ذلك فندب إلى الزّواج، وحضّ عليه وسّماه إحصانًا، وشرّع له من الأحكام ما هو أقرب إلى التيّسير والفطرة والتّسامح، كلّ ذلك ليحفظ على الشّاب والشّابّة دينهما وعرضهما ويضبط عليهما عواطفهما فـ**لا** تمتدّ العين إلى محرم، و**لا** تهفو النّفس إلى محظور، و**لا** يجاوزان بالفطرة حدود الله"[4]. ويلاحظ أّن المحاجج قد وظّف حرف النّفي (لا) ثلاث مرّات نافياً بذلك امتداد

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص294.

[2] المصدر نفسه، ص294.

[3] المصدر نفسه، ص294.

[4] المصدر نفسه، ص295.

العين إلى محرّم، وهفوة النّفس إلى محظور، ومجاوزة حدود الله، كل ذلك إذا سار الشباب على خطى دينهم.

يواصل الإبراهيمي طرح حججه فتطرّق إلى أهّم الأسباب الّتي جعلت الشّباب يعزفون عن الزّواج، ومنها أنّ الشّاب لم يعد يهتّم بالمرأة لجمالها أو لنسبها أو دينها فيقول:" فأصبح الزّوج **لا** ينظر من الزّوجة إلى دينها وحسبها وجمالها، وإّنما ينظر إلى شيء واحد ... إلى مالها"[1]، فهو بذلك ينفي نظر الزّوج إلى دين زوجته أو حسبها أو جمالها إّنما ينظر إلى شيء واحد وهو المال، فحتّى لو كانت ذميمة الخُلُق والخلقة فلا يهّم، فيقول:" فلتكن من خضراء الدّمن، ولتكن دميمة الخلقة، كلّ ذلك **لا** يضيرها عند الزّوج الطّامع إذا كان لها مال، وولّي الزّوجة **لا** ينظر من خاطب بنته إلى أصله ودينه وأخلاقه، وإّنما ينظر إلى شيء واحد ... إلى ماله وما يقّمه من المهر الغالي والحلّي النّفيس، وبعد هذا **لا** نعجب إذا رأينا كلّ زواج يبتدئ بهذا الاعتبار، ينتهي بالطّلاق والعدواة والخصام"[2] وقد استعمل هنا أداة النّفي (لا) ثلاث مّرات ليؤكّد أنّ الزّوج الطّامع لا يهتّم سوى بالأمور المادّية (المال)، وكذلك ولّي الزّوجة الّذي لا يرى من خاطب ابنته سوى ماله، ونفى بذلك أّنه يعجب من نتيجة هذا التّفكير الّذي سينتهي حتما بالطّلاق.

[1] محّمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص295.

[2] المصدر نفسه، ص295.

ثّم يواصل المحاجِج الحديث عّمن يهتّم بالمال فقط فيقول:" و**لا** يراعي في زوج بنته إلّا جانب المال، رجل **لا** عقل له و**لا** ضمير"[1] ، وقد كّرر بذلك حرف النّفي (لا) ثلاث مّرات أيضا ليحزم قوله في الّرجل الّذي يزّوج بنته على أساس المال، ووصفه بأّنه رجل لا عقل له ولا ضمير، فقد نفى عنه العقل والضّمير، وماذا يظلّ في الإنسان إذا نفي عنه عقله وضميره؟

وبعد ذلك يضرب لنا الإبراهيمّي مثلا من الواقع الجزائريّ فيقول:" وكم رأينا من غنّي زّوج بنته بسكّير لما قّدم من حلّي وساق من مهر، فعاشت بنته في نكد، ولمتتمتّع بزوج و**لا** ولد" وقد نفى تمتّع المرأة بالّزوج والأولاد إن تزّوجت بسكّير ينكّد حياتها.

ثّم يدعو المحاجِج الأهل والآباء أن ييّسروا ولا يعّسروا على بناتهم فيقول:" إّنكم **لا** تغالبون الطّبيعة البشرّية إلّا غلبتكم، و**لا** تشاّون سنن الله إلّا قهرتكم، وإّن الّدواء في أيديكم، فيّسروا ولا تعّسروا"[2] ، ويلاحظ أّن المحاجِج استعمل حرف النّفي (لا) مرتين، فهو ينفي أن يغلب الآباء الطّبيعة البشرّية، وينفي أن يقهروا سنن الله.

ثّم يذهب المحاجِج لمحاججة الشّباب الجزائريّ الّذي جعل من الّزواج أمرا ثانويّا في حياته فيقول:"أّيها الشّبان! إّنكم لا تخدمون وطنكم وأّمتكم بأشرف من أن تتزّوجوا"[3] فقد ربط المحاجِج خدمة الوطن بالّزواج.

---

[1] محّمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَاُر الإِ َمام ُمَحَمَّد الَبِشير الإِبْراهِيمي ، ص295.

[2] المصدر نفسه، ص296.

[3] المصدر نفسه، ص296.

ينهي المحاجِج حديثه عن الزّواج لينتقل للحديث عن الطّلاق الّذي وصفه بالبتّ والتّمزيق وما ينتج عنه من بغض وتألّم وحقد، والدّور الّذي يقوم به الدّين الإسلاميّ كي يكون الطّلاق كما قال الإبراهيمي" عمليّة بـ**لا** ألم"[1]، وهذا رغم جهل الكثير من المسلمين حقائق دينهم فيقول:" جهل المسلمون حقائق دينهم، وجهلوا الحكم المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء لأخذهم إياه من كتب تُعلّم الأحكام و**لا** تُبيّن الحِكَم"[2] فقد نفى تبيان الكتب للحكم، واقتصارها فقط على تعليم الأحكام.

ويسترسل المحاجج في الحديث عن الفقه والفقهاء وتعدّي حدود الله في الطّلاق والفهم السّطحيّ لكتب الفقه، فهم يأخذون المسائل كما هي ولا يحتكمون إلى العقل في الحكم على هذا وذاك فيقول: ".. فالفقيه **لا** يعرفُ إلا أنّ العصمة بيد الزّوج، لأنّه **لا** يجد في كتب الفقه إلّا هذا، وهو حقّ في أصل الشّريعة، ولكن الإسلام **لا** يُعطي هذه الحقوق أو هذه الامتيازات إلّا للمسلم الصّحيح الإسلام، القويّ الإيمان. فهو يكل إليه عهدًا ويستحفظه على أمانة، اعتمادًا على رشده، وثقة بإيمانه، أمّا إعطاء هذه الامتيازات إلى الجاهلين المتحلّلين من قيود الإسلام فهو **لا** يقلّ شناعة وسوء أثر عن إعطاء السّلاح للمجانين". والملاحظ هنا أنّ الإبراهيمي قد كرّر أداة النّفي (لا) أربع مرّات ليبطل فكرة أنّ الإسلام يطّبق كما هو على جميع النّاس سواء من كان إسلامه صحيحا أو خاطئا.

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِ َمام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص 297.

[2] المصدر السابق، ص 297.

2. عامل النّفي(لم):

تأتي (لم) في المرتبة الثّانية من حيث نسبة ورودها في المدّونة، حيث وردت سبع عشرة مرّة، و(لم) حرف نفي له ثلاثة أقسام[1]:

أ. أن يكون جازما.

ب.أن يكون ملغى لا عمل له، فيرفع الفعل المضارع بعده.

ج. أن يكون ناصبا للفعل.

ونبدأ في طرح الأمثلة ومع المثال الأوّل الّذي يقول فيه المحاجج:" إنّ الزّوجة والأولاد حبال تربط الوطنّي بوطنه، وتزيد في إيمانه، وإنّ الإعراض عن الزّواج فرار من أعظم مسؤولية في الحياة، ولمن تُخدُم الأوطان إذا **لم** يكن ذلك لحماية من على ظهرها من أولاد وحُرَم"[2]. وفي هذا المثال ربط المحاجج بين الزّواج والوطنّية، وقد طرح سؤالا حول الهدف الّذي تخدم الأوطان لأجله، بعدها أجاب بنفي جازم ردّا على الشّباب العازفين عن الزّواج، والّذين يتحجّجون بخدمة الأوطان لترك الزّواج.

أمّا في المثال الثّاني ومن خلال حديثه عن المهر أو ما يعرف بالصّداق، فقد تحدّث عن جهود البعض في الحدّ من ظاهرة غلاء المهور من خلال تحديد مبلغ محدّد يتساوى فيه الغنّي والفقير، لكّنه تنّبه لأمرين؛ الأوّل: أنّهم حدّدوا مهرا لا يقدر عليه الفقراء لأنّ الفقر درجات، والأمر الثّاني: أنّه وجب على من بادروا بهذه المبادرة الإسلاميّة أن يصلحوا

[1] ينظر: المرادي، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ، ص60.

[2] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص296.

الأخلاق والنّفوس أوّلا، ويورد المحاجج أنّه قد طلب منه التّطرّق لهذا الموضوع: "وقد سُئلنا أن نكتب كلمة في هذا الموضوع تبيّن الحكم الشّرعيّ على وجهه وتجلّي الحكمة الشّرعيّة على حقيقتها، فكتبنا هذه الكلمة في بيان الحكم العامّ، في الحالة العامّة، ولم نوجّهها إلى جماعة خاصة، وإنما وجّهناها إلى الأمّة كلّها لأنّ مرضها واحد"[1]، وهنا ينفي توجيه كلمته لفئة معيّنة، بل وجّهها للأمّة جمعاء، لأنّ فيها صلاح وإرشاد.

يستأنف المحاجج كلامه عن المهر، وينفي ما يقوله الفقهاء المسارعون إلى التّعليلات السّطحيّة حول المهر إذ شبّهوه بالبيع والشّراء، فيقول: "فإذا أدخلناها في باب الأثمان والقيم لم يبقَ إلّا أن نسمّي الزّوجة بائعة، والزّوج مشتر، والخاطب سمساراً"[2]، وهنا تبرز حكمة المحاجج ودهائه وحسن اختياره للحجج الدّامغة لهؤلاء الطّاعنين في الإسلام كما وصفهم.

ونمضي مع مثال آخر ودائما مع الحديث عن الصّداق وهل له حدّ؟ فيقول المحاجج في ذلك:" والخلاصة أنّ الشّريعة المطهّرة الحكيمة لم تحدّد في الصّداق حدًّا أدنى، ولا حدًّا أعلى"[3] وهنا نفي جازم يدحض به كلّ الآراء الّتي تقول بتحديد حدّ للمهر.

يقول في مثال آخر:" ولو كان له حدّ منصوص في الكثرة لوقف عنده عمر، ولم يعزم على تحديده، وإن كانت الرّوايات لا تفيد أنّه عزم على التّحديد، وإنما نهى عن المغالاة فيه"[4]

---

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص324.

[2] المصدر نفسه، 324.

[3] المصدر نفسه، ص325.

[4] المصدر نفسه، ص325.

فهنا نفي لعزم عمر بن الخطّاب،- رضي الله عنه- على تحديد حدّ أعلى للمهر والتّأكيد على أنّه نهى عن المغالاة فيه.

نمضي مع مثال آخر وفي حديث المحاجج عن الطّلاق يقول:" أنا **لم**أسمع مدةَ دراستي للفقه في بعض تلك الكتب إلّا كلمتين تثيران في النّفس شيئًا من الإحساس الحيّ، وتنّهان على خيال من الحكمة، وتبثّان في المشاعر بصيصًا من النّور، إحداهما في باب النّكاح، وهي قولهم: 'النّكاح مبنيٌّ على المكارمة'، والثّانية في باب الطّلاق، وهي تناقلهم لأثر أبغض الحلال إلى الله الطّلاق'.."[1]، فهنا ينفي المحاجج نفيا جازما سماعه ما يشير في نفسه شيئا من الإحساس الحيّ سوى ما قيل في باب النّكاح وباب الطّلاق، وهنا تأكيد على أهّمية هاتين الكلمتين.

3. عامل النّفي(ما):

ورد عامل النّفي (ما) في المدوّنة تسع مرّات (9 مرّات)، و"(ما) النّافية تدخل على الجمل الاسمّية والفعلّية، وتشّبه بـ(ليس) لأنّها للنّفي، أّما إذا زال النّفي زالت المشابهة"[2].

نبدأ مع المثال الأوّل، والّذي وردت فيه أداة النّفي (ما) في حديث الإبراهيمي عن سبب الوقوع في مشكلة تأخير الزّواج قائلا:"ولو أّننا وقفنا عند حدود الله، ويسّرنا ما عسّرته العوائد

[1] محّمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْراهِيمي، ص298.

[2] الإمام أ بي محّمد سعيد بن المبارك بن الدّهّان النّحوي: شرح الدّروس في النّحو، تحقيق إبراهيم محّمد أحمد الإدكاوي، ط1، 1991م، مطبعة الأمانة، القاهرة، ص198.

من أمور الزّواج، **لما** وقعنا في هذه المشكلة"[1]، فقد نفى المحاجج الوقوع في مشكلة تأخير الزّواج لو تّم الوقوف عند حدود الله.

في المثال الثّاني، وفي سياق الحديث عن الطّلاق ووصفه في القرآن الكريم يقول:"**وما** وصْفه في القرآن بالسّراح الجميل والتّسريح بالإحسان، إلّا تلطيف إلهي في أسلوب معجز يبعث في النّفوس المؤمنة نفحات تلطّف وما تزال تلطّف من غلظ الإحساس وعرام الحيوانيّة حتّى يصير الطّلاق عمليّة بلا ألم"[2]، وهذا بمثابة ردّ على من يعتبر الطّلاق تفكّك وتمزّق وبغض وألم وغيره ممّا وصفه الشّعراء –على حدّ قوله-وقد دحض قولهم هذا بحديثه عن وصف الطّلاق في القرآن الكريم بالسّواح الجميل.

في مثال آخر ورد عامل النّفي (ما) في سياق الحديث عن سوء فهم الرّجال للفقه، وقد ردّ الإبراهيمي سوء فهمهم إلى سوء تفهيم الفقهاء فيقول:" **وما** جاء هذا التّخلخل إلّا من سوء فهم من الرّجل، انبنى عليه سوء تصرّف منه في الحقّ الذي خوّله الشّارع، وهو أنّه يملك العصمة، **وما** جاء سوء الفهم إلّا من سوء التّفهيم من الفقيه، فالفقيه لا يعرفُ إلا أنّ العصمة بيد الزّوج، لأنّه لا يجد في كتب الفقه إلّا هذا، وهو حقّ في أصل الشّريعة، ولكن الإسلام لا يُعطي هذه الحقوق أو هذه الامتيازات إلّا للمسلم الصّحيح الإسلام"[3] بالتّالي فالإبراهيمي يرجع الفهم الخاطئللفقه إلى التّفهيم الخاطئ من قبل الفقهاء.

---

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي، ص297.

[2] المصدر السابق، ص297.

[3] المصدر نفسه، ص299.

في مثال آخر استعمل الإبراهيمي عامل النّفي (ما) للحديث عن الصّداق واختلاف الأئمّة حول حدّه المنصوص في نصوص الشّريعة يقول:"وليس للصّداق في أصل الشّريعة ونصوصها القطعّية، وتطبيقاتها العملّية، حدّمنصوص يوقف عنده لا في القلّة ولا في الكثرة، وإنّما هو موكول إلى أحوالهم في العسرة واليسرة، وطبقاتهم في الغنى والفقر، ولو كان له حدّمنصوص في القلّة **لما** اختلف الأئمّة في حدّه الأدنى، فقال مالك ثلاثة دراهم أو رُبع دينار، وقال أبو حنيفة عشرة دراهم، وقال غيرهما خمسة؛ و**لما** اختلفت مداركهم في المقيس عليه ما هو؟"[1]، نلاحظ استعمال حرف النّفي (ما) مرّتين ليدمغ بالحجّة القائلين بتحديد المهر، وبيّن بذلك اختلاف الأئمّة واختلاف مداركهم.

في مثال آخر يتحدّث الإبراهيمي عن أعراس الشّيطان والأماكن الّتي لا يبرحها يقول:"وما كنّا نعلم أنّ للشّيطان مرابع خاصّة لا يبرحها في فصلين من السّنة، ومعظمها في "العمالة الوهرانّية"، وما ذلك لطيب في هوائها، أو عذوبة في مائها، أو اعتدال في جوّها، فالشّيطان غنّي عن هذا كلّه"[2] وفي هذه العبارة تكرّر حرف النّفي (ما) مرّتين؛ ففي المرّة الأولى ينفي المحاجج علمه بوجود مرابع خاصّة للشّيطان، وفي المرّة الثّانية نفى أن يكون سبب عدم براح الشّيطان لمرابعه الخاصّة هو طيب هوائها أو عذوبة مائها أو اعتدال جوّها، وإنّما الشّيطان لا تهمّه تلك الأمور فهو يبحث عن هواها وسهولة الانقياد.

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص324، 325.

[2] المصدر نفسه، ص319.

4. عامل النّفي(ليس):

تكرّر عامل النّفي (ليس) في مقالات (من مشاكلنا الاجتماعيّة) سبع مرّات (7 مرّات) وبالتّالي جاءت في المرتبة الثّالثة من حيث نسبة ورودها، وكما هو معروف فـ(ليس) فعل ماض جامد من أخوات كان " يدخل على جملة ابتدائيّة فينفيها في الحال، وذلك أنّك إذا قلت:' زيد قائم' ففيه إيجاب قيامه في الحال، وإذا قلت:' ليس زيد قائما' فقد نفيت هذا المعنى"[1].

هناك من يرى أنّ (ليس) حرف إذا دخلت على الجملة الفعلّية[2]، وسنكشف عن وظيفتها الحجاجّية، ونبدأ بالمثال الأوّل والّذي يفصح فيه المحاجج على تكوين المجتمع الجزائريّ فيقول:" إنّ أمّتنا **ليست** منسجمة العوائد في أمورها الحيويّة، و**ليست** مطبوعة على قالب واحد في تكوينها الاجتماعيّ"[3] فهو ينفي تساوي الطّبقات في المجتمع الجزائريّ ممّا يؤدّي إلى التّفاوت في المشاكل الاجتماعيّة.

ثّم يمضي المُحاجج مع المثال الثّاني، ودائما مع الحديث عن الشّبان والزّواج، وفي صدد تأكيد ما ورد في السّيرة النّبويّة الشّريفة فيقول: "زوّج رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم -مسلمة مؤمنة على أن يعلّمها زوجها سورًا من القرآن، واكتفى في تزويج أخرى بخاتم من

---

[1] ابن يعيش: شرح المفصّل للزّمخشري، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 2001م، ج4، ص366.

[2] المرادي، الجنى الدّاني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدّين قباوة ومحمّد نديم فاضل، دار الكتب العلميّة، ط1، 1992م، ص494.

[3] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص293.

حديد (لو وُجد) ليرشد إلى أنّ المال **ليس** له من الاعتبار في باب الزّواج إلّا ما لخاتم الحديد"[1] ، فقد نفى أهّمية المال في باب الزّواج.

في مثال آخر نلمس عامل النّفي (ليس) في قوله:" و**ليس** للصّداق في أصل الشّريعة ونصوصها القطعّية، وتطبيقاتها العملّية، حدّمنصوص يوقف عنده لا في القلّة ولا في الكثرة"[2] فيؤكّد المحاجج هنا أنّه لا حدّ للمهر سواء في القلّة أو في الكثرة، فهو ينفي وجود حدّ معّين كما يزعم البعض.

يقول في مثال آخر - دائما في حديثه عن الصّداق وهل له حدّ - ومن خلال تفسيره لشرعية الصّداق والمغزى منه يقول:" وفهمنا لحكمته أنّه رمز نبويّ بعيد المغزى، عالي الإشارة، إلى أنّ ما يفتتن به النّاس بمقتضى طبيعتهم من اعتبار المال في الزّواج **ليس** مقصدًا شرعيًّا"[3] ، فهو يبّين ميول النّاس للمال وكيف أنّه نفى مقصدّيته الشّرعّية، وإنّما اعتبر ذلك مقصدّية غرائزّية، كيف لا وهو زينة الحياة الدّنيا.

بّين المحاجج الحكمة من تشريع الصّداق والّتي ترقى عن تحقيق رغبات غرائزّية في الإنسان فيقول:" أّما القصد الحكيم فهو من وراء ذلك: هو في الإحصان، وقمع الغرائز

[1] المصدر السابق، ص295.

[2] المصدر نفسه، ص324.

[3] المصدر نفسه، ص326.

الحيوانّية، وسكون القلب إلى القلب، وتحقيق حكمة الله في التنّاسل وتسلسل النّوع، إلى غير ذلك من الحكم الّتي **ليس** منها المال"[1] فقد نفى كون المال هو الحكمة من الصّداق.

5. عامل النّفي(غير):

ورد عامل النّفي (غير) في مقالات (من مشاكلنا الاجتماعّية) سبع مرّات (7 مرّات)، "و(غير) اسم يفيد نفي الاسم الواقع بعده، ويعرب حسب موقعه من الجملة، وهو مضاف وما بعده مضاف إليه مجرور دائما"[2].

ونلمس عامل النّفي (غير) في المثال الأّول في حديث المحاجج عن نوعين من الشّباب الأعزاب من حيث الثّقافة وعدمها، وفي حديثه عن تعذّرهم عن الزّواج يقول:"وأّما **غير**المثقّفين وهم الّذين يعتمدون على العمل الجسمانّي، ولم يصلْ بهم فساد الذّوق إلى احتقار الجنس، فهم يتذرون عن تأخير التّ.زّوج أعذارًا أخرى منها المقبول ومنها المردود؛ ولئن سألتهم ليقولنّ: كيف نتزّوج مع هذه الشّروط المرهقة"[3]؛ وهنا ينفي المحاجج الفئة المثقّفة من خلال هذه الأعذار في التّأخير عن الزّواج.

في المثال الثاني تحدّث المحاجج عن الأّمة الرّشيدة ودورها في حفظ شبابها من الانحراف فيقول:"إنّ الأّمة الرّشيدة هي الّ تي تحرس شّبانها في طور الشّباب من الآفات الّتي تصاحب هذا الطّور، فتحافظ على أفكارهم أن تزيغ، لأنّ هذا الطّور طور له ما بعده

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْراهِيمِي، ص326.

[2] مالك عّوادي: الخطاب الحجاجي عند الإمام محّمد الغزالي، رسالة دكتوراه، جامعة محّمد خيضر - بسكرة، ص99.

[3] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص294.

من زيغ أو استقامة، وتحافظ على أهوائهم أن تتّجه اتّجاهًا **غير** محمود"[1]، فقد نفى المحاجج محمودّية الاتّجاه الّذي تسلكه أهواء الشّباب إذا لم تحرس ولم يحافظ عليها.

نسوق مثالا آخر يتضمّن عامل النّفي (غير) ومن خلال حديث المحاجج عمّا يعرف بالزّردة يقول:" وقد كانت هذه الزّردة تقام في أيّام الجدوب للاستسقاء **غير** المشروع"[2]. وفي هذا المثال نفى المحاجج مشروعيّة الاستسقاء بإقامة الزّردة، الّتي وصفها بأعراس الشّيطان، وكما هو معروف تقام في أيّام الجدوب ظنّا من أصحاب العقول الضّعيفة أنّها تجلب الماء والنّماء.

في مثال آخر يتحدّث الإبراهيمي عن الجهل الّذي عاناه الشّعب الجزائريّ أثناء فترة الاستدمار، والاستغباء الّذي مورس عليه من طرف المعمّرين الأوروبّيين، حيث كان الجزائريّ يتّخذ من الحجارة والصّخور المركومة على حافّة الطّرقات مكانا للتّعبّد وذلك بعد طلائه بطلاء أبيض، ويروي مروره في إحدى المرّات بقطعة أرض شبّهها بالجنّة، لكن بعد مروره بعد سنة يقول:" ثمّ مررتُ بعد سنة بتلك القطعة، فدلّني تبدّل الأرض **غير** الأرض على أنّ صاحبها الأوّل قامت قيامته" أي أنّه وجد الحجارة رشّت بالجير ووضع فيها البخور والشّمع، وصارت مكانا يقومون بزيارته للتضرع.

يتحدّث المحاجج في مثال آخر عن أسباب عودةتلك الطّقوس الّتي وصفها بالعوائد الشّيطانيّة فيقول:" وإن لعودة هذه المنكرات لسببًا جديدًا **غير** العقيدة، فقد ضعفت، و**غير**

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص294.

[2] المصدر نفسه، ص320.

المنفعة المادّية لدعاة الشّيطان، فقد نزرت، وإنما هو تنشيط الحكومة لها، وتحريضها على إحيائها، لأنّ في بقائها قوّة للاستعمـــار، ومقاومة للحركة الإصلاحيّة، وإلهاء لرجال الإصلاح عن البناء والإصلاح"[1] ، والملاحظ أنّ عامل النّفي (غير) استعمل مرّتين في هذه العبارة؛ ففي المرّة الأولى نفى المحاجج العقيدة كونها سببا لعودة تلك المنكرات، وفي المرّة الثّانية نفى المنفعة المادّية لدعاة الشّيطان، بالتّالي فالسّبب الأوّل لعودة المنكرات أقرّه المحاجج وهو الاستعمار الفرنسّي الذّي يقوم بإحيائها ودعمها لأنّه بحياتها وعودتها يحيا هو أيضا.

من هنا نخلص إلى أنّ النّفي عامل حجاجّي يحقّق به المحاجج وظيفة اللّغة الحجاجّية، والمتمثّلة في إقناع المتلقّي واستمالته، وتسليمه عبر توجيهه بالملفوظ إلى النّتيجة "ن"[2]، ويمكن تصنيف النّفي ضمن الحجاج اللّغويّ، وصفة "اللّغويّ" هنا قيد مانع من الاختلاط ببقيّة المقاربات الحجاجّية غير اللّغويّة كالحجاج البلاغّي والحجاج المنطقي[3].

بهذا تكون قد تحقّقت الوظيفة الحجاجّية للنّفي في خطب البشير الإبراهيمي وبالتحديد في مقالات "من مشاكلنا الاجتماعية" والّتي تناولناها بالدّراسة والتّحليل، والمتمثّلة في إقناع المتلقّي خلال استعماله أدوات نفي مختلفة وهي: (لا- لم- ما- ليس- غير).

---

[1] محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمام مُحَمَّد الْبَشِير الإِبْرَاهِيمِي ، ص322.

[2] عزّ الدّين النّاجح: العوامل الحجاجّية في اللّغة العربيّة، مكتبة علاء الدّين، صفاقس- تونس، ط1، 2011م، ص47.

[3] عمر بوقمرة، مجلّة العاصمة، المجلّد 9، 2018م، ص166.

الخاتمة

الحمد لله الّذي أعاننا على إتمام هذا البحث البسيط، والّذي ابتدأ بجمع المادّة من مناهل متعدّدة وموارد متنّوعة، إلى أن توصّلنا إلى النّتائج الآتية:

1. يمكن حصر دور أدوات النّفي في كونها توجّه القول حجاجيّا فمن خلالها يذهب المحاجِج إلى رد فكرة أو دحض رأي أو تفنيد قول في مقابل تأكيد فكرة أخرى وإثبات رأي آخر.
2. مثّل النّفي بنية لغويّة لجأ إليها الإبراهيمي لتحقيق خطّته الحجاجية موفّرة بذلك القبول لدى المخاطَب وهذا هو الهدف المنوط.
3. التّعرّف على أبرز أعمال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الشّعر والنّثر خلال مشواره العلميّ والفكريّ- وإن كان النّثر غالبا-.
4. تعتبر خطب البشير الإبراهيمي الميدان الأمثل للإقناع واستمالة المتلقّي من خلال استخدامه للحجج اللّغويّة.
5. حفلت خطب البشير الإبراهيمي بالعوامل الحجاجيّة وأبرزها عامل النّفي والّذي نلمسه بكثرة في مقالات " من مشاكلنا الاجتماعيّة".
6. ورد النّفي الصّريح في خطب البشير الإبراهيمي من خلال أدوات النّفي (لا- ليس- لم- ما- غير)، وذلك بهدف استمالة المتلقّي وإقناعه.

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

❖ محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْرَاهِيمِي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997م.

1. إبراهيم مصطفى، أحمد الزّيات وآخرون: المعجم الوسيط، د.ط ، دار الّدعوة، د.ت.
2. ابن يعيش(موفّق الّدين أبو البقاء يعيش بن علّي): شرح المفصّل للزّمخشري، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 2001م، ج5.
3. ابن يعيش: شرح المفصّل للزّمخشري، دار الكتب العلمّية، بيروت- لبنان، ط1، 2001م، ج4.
4. أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد تركي، ط3، دار الغرب الإسلامي- بيروت، لبنان، 2000م.
5. أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش – المغرب، ط1.
6. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري: الصّناعتين، تحقيق: علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، المكتبة العصريّة – بيروت، 1419 هـ.

7. أحمد بن فارس الّرازي: معجم مقاييس اللّغة: تحقيق عبد السّلام هارون، دار الجيل - بيروت ، ط1، 1999م، ج5.

8. أحمد بن فارس بن زكرّياء القزوينّي الّرازي: مجمل اللّغة ، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، ط2 ، مؤسّسة الّرسالة- بيروت، 1406 هـ - 1986 م.

9. سهام سماح ونوال سماح، الأسلوب الحجاجي في القرآن الكريم سورة الكهف أنموذجا، مذكرة ماستر، جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية.

10. أبو محمّد سعيد بن المبارك بن الدّهّان الّنحوي: شرح الّدروس في الّنحو، تحقيق إبراهيم محمّد أحمد الإدكاوي، ط1، 1991م، مطبعة الأمانة، القاهرة.

11. بدر الّدين بن محمّد بن عبد الله الّزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ج2.

12. امحمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى "عليه السلام"، مذكرة ماجستير، جامعة السانية وهران.

13. جمال الّدين ابن منظور بن مكرم: لسان العرب، تحقيق يوسف الخّياط، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، 1988م، ج6.

14. حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي" عناصر استقصاء نظري"، مجلّة عالم الفكر، العدد1، 1يوليو 2001م، الكويت.

15. خير الّدين الّزركلي: الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002م.

16. زكرّيا بشير إبراهيم: حول مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، دراسات دعوّية، العدد 04، يوليو 2000م.

17. زكرّياء السّوتي: بلاغة الإقناع في الخطاب التّفسيريّ للبيضاوي، المغرب.

18. زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصّحاح، تحقيق: يوسف الشّيخ محمّد، ط5 ، المكتبة العصريّة- الدّار النّموذجيّة، صيدا- بيروت، 1420هـ - 1999م.

19. عبد الحميد هيمة: الآراء النّقديّة للشّيخ البشير الإبراهيمي في كتابه التّراث الشّعبيّ والشّعر الملحون في الجزائر، مجلّة الأثر، العدد 17، جانفي 2013م.

20. عبد الرّحمن بن أبي بكر، جلال الدّين السّيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، د. ط، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1394هـ- 1974 م.

21. عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبّية، ط2، دار الفارابي بيروت- لبنان، 2007م.

22. عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، ط1 ، مسكيلياني للنّشر والتوزيع، تونس، 2011م.

23. عبد الهادي بن ظافر الشّهري: استراتيجّيات الخطاب- مقاربة لغوّية تداولّية، ط1، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي- ليبيا ، 2004م.

24. عزّ الدّين النّاجح، العوامل الحجاجّية في اللّغة العربّية، مكتبة علاء الدّين، صفاقس- تونس، 2011م.

25. علي بن محمّد بن علي الزّين الشّريف الجرجانّي: التّعريفات، ضبطه وصحّحه جماعة من العلماء بإشراف النّاشر، ط1، دار الكتب العلمّية بيروت - لبنان، 1403هـ - 1983م.

26.عمر بوقمرة، مجلّة العاصمة، المجلّد 9، 2018م.

27. كريستيان بلانتان، ترجمة عبد القادر المهيري، مراجعة عبد القادر صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2008م.

28. مالك عوّادي: الخطاب الحجاجي عند الإمام محمّد الغزالي، رسالة دكتوراه، جامعة محمّد خيضر - بسكرة.

29. مجمع اللّغة العربّية: المعجم الوسيط، دار المعارف المصرّية، ط2، 1972م، ج2.

30. محفوظ كحوال: سلسلة الشّعر العربّي المعاصر - أروع قصائد نزار قّباني، 2007م، نوميديا للطّباعة والّنشر، قسنطينة.

31. محمّد العبد: الّنصّ الحجاجي العربي، مجلّة جذور، ج21، مج9، رجب 1426هـ - سبتمبر 2005.

32. المرادي (حسن بن قاسم)، الجنى الدّاني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدّين قباوة ومحمّد نديم فاضل، دار الكتب العلمّية، ط1، 1992م.

33. مسلم بن الحجّاج أبو الحسن القشيري النّيسابوري: المسند الصّحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دط، دار إحياء التّراث العربي – بيروت، د.ت.

34. مهدي المخزومي: في النّحو العربّي - نقد وتوجيه، دار الرّائد العربي، بيروت، ط2، 1986م.

35. هاجر مدقن: الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه- دراسة تطبيقّية في كتاب المساكين للرّافعي، مذكرة من متطلّبات شهادة الماجستير في الأدب العربّي، كلية الآداب والعلوم الإنسانّية، قسم اللّغة العربّية وآدابها، جامعة ورقلة، 2002-2003م .

36. وردة بويران: ظواهر أسلوبّية في لامّية العرب للشّنفرى، ط1، دار من المحيط إلى الخليج، ودار خالد اللّحياني، المملكة العربّية السّعودّية- مكّة المكرّمة، 2016م.

37. يوسف الوادي: تجلّيات ثقافة المقاومة في فكر محمّد البشير الإبراهيمي وأدبه، جامعة الوادي.

38. يوسف بن أبي بكر بن محمّد بن علي السّكّاكي: مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمّية، بيروت – لبنان، 1407 هـ - 1987 م.

ملحق

آثار الإمام
محمد البشير الإبراهيمي

جمع وتقديم نجله
الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي

الجزء الثالث
عيون البصائر

دار الغرب الإسلامي

من مشاكلنا الاجتماعية (1)

الشبّان والزواج*

تعاني الأمة الجزائرية وجاراتها المتّحدة معها في الدين والجنس، المقاربة لها في العادات والمصطلحات، عدة مشاكل اجتماعية، لا يسع المصلحين إغفالها، ولا السكوت عليها بعد ظهور آثارها، وتحقّق أضرارها، وستعالج «البصائر» طائفة من أمهاتها، ببيان نتائجها، وبيان وجه الرأي في علاجها، سائلة من حملة الأقلام وحملة الألسنة وذوي الرأي أن يظاهروها في هذا العلاج، ومن الأمة أن تقوم بواجبها من السمع والطاعة والتنفيذ، فإن من بعض هذه المشاكل ما لو تمادى وامتدّ لأتى بنيان الأمة من القواعد، وقضى عليها بالمسخ أولًا، والتلاشي أخيرًا.

أعضل هذه المشاكل، وأعمقها أثرًا في حياة الأمة، وأبعدها تأثيرًا في تكوينها مشكلة الزواج بالنسبة إلى الشبّان، فالواقع المشهود أنّ الكثير من شبابنا – وهم أملنا وورثة خصائصنا – يعرضون عن الزواج إلى أن يبلغ الواحد منهم سن الثلاثين فما فوق؛ ويترتب على ذلك أنّ الكثيرات من شوابنا يتعطلن عن الزواج إلى تلك السن، فيضيع على الجنسين ربيع الحياة ونسماته وأزهاره وبهجته وقوّته، ويضيع على الأمة نباتُ ذلك الربيع، وثمر الخصب والنماء والزكاء فيه، ثم تضيع بسبب ذلك أخلاق وأعراض وأموال، وإذا زادت هذه الفاشية فشوًّا، واستحكم هذا التقليد الفاسد، فإن الأمة تتلاشى في عشرات من السنين.

إن أمّتنا ليست منسجمة العوائد في أمورها الحيوية، وليست مطبوعة على قالب واحد في تكوينها الاجتماعي؛ ولذلك نجد البُداة المتّصلين بالفطرة لا يحسّون بهذه المشكلة بل تؤدّي بهم البساطة إلى الخروج عن حد الاعتدال تفريطًا، فيزوّجون أولادهم قبل سنّ البلوغ، وهو تفريط شائن مَعيب، وخيرُ الأمور الوسط.

* نشرت في العدد 6 من جريدة «البصائر»، 12 سبتمبر سنة 1947.

إننا نتحدّث عن شبابنا الذين يُطاولون بالزواج وهم ينوونه، وأما أولئك الشبّان الذين أركسوا في الدرك الأسفل من الحيوانية، فانطلقوا مع الشهوات، واستمرأوا التحلّل من قيود الدين والعقل، ورأوا أن الزواج قيد لحريتهم البهيمية، فتحالفوا مع الشيطان على بتّ حباله، فأولئك قوم مجرمون.

شبابنا الأعزاب المتأولون نوعان، من حيث الثقافة وعدمها.

فأما المثقّفون الذين يستغلّون ثقافتهم، ويعيشون بها، فيبالغون كلما ذُكر الزواج في الاحتياط للمستقبل، والاستعداد لتكاليف النسل، ومنهم من يعتذر للعزوبة بأنه لا يجمل به أن يتزوّج من الجاهلات الأميات؛ وعذرهم هذا يطوي أشياء يلوحون لها تارة، ويصرّحون بها أخرى؛ وقد يزيغ بعضهم الزيغة الكبرى فيتزوّج بأجنبية، يُنفق عليها ما ينشئ ابنة عمّه خلقًا جديدًا متعلّمًا مهذبًا مدبرًا منظّمًا، ولا نلوم أولئك ولا هؤلاء، لأن الحضارة الغربية أفسدت أذواقهم، وأزاغت نظرهم إلى الحياة، فجعلت البعض يحتاط للمستقبل احتياطًا مفرطًا، وجعلت البعض يأنف من الفضيلة إذا كانت أمية، ولا يأنف من الرذيلة إذا كانت متعلّمة، لا نلومهم وإنما نلوم أنفسنا، إذ لم نأخذ للأمر عدته، ولم نحتط لعواقبه البعيدة، فنعلم البنت تعليمًا إسلاميًّا قويًّا بروحه، قائمًا بفضيلته، واسعًا بمعانيه، ترغم به هذا الشباب الأخرق على الرجوع إلى أصله، ولا يفلّ الحديد إلا الحديد.

وأما غير المثقفين وهم الذين يعتمدون على العمل الجسماني، ولم يصلْ بهم فساد الذوق إلى احتقار الجنس، فهم يعتذرون عن تأخير التزوّج أعذارًا أخرى منها المقبول ومنها المردود؛ ولئن سألتهم ليقولن: كيف نتزوّج مع هذه الشروط المرهقة، وهذه العوائد التي تجلب الإفلاس على الأغنياء، فكيف بالفقراء أمثالنا، وإن كثيرًا منهم لصادق في كثير من هذه المعاذير، وإن عذرهم لبيّن ولا تلحقهم في هذا ملامة، وإنما اللوم على هذا المجتمع الفاسد الذي نبذ هداية الدين، وإرشاد العقل، وشهادة الواقع، وحكم العوائد، وتناول هذه المسائل الكبيرة بالنظر القصير، وإلى هذا المجتمع نسوق كلمتنا هذه:

إن الأمّة الرشيدة هي التي تحرس شبّانها في طور الشباب من الآفات التي تصاحب هذا الطور، فتحافظ على أفكارهم أن تزيغ، لأن هذا الطور طور له ما بعده من زيغ أو استقامة، وتحافظ على أهوائهم أن تتجه اتجاهًا غير محمود، وتحافظ على عقولهم أن تعلق بها الخيالات، فتنشأ عليها، ويعسر أو يتعذّر رجوعهم عنها، وتحافظ على ميولهم وعواطفهم أن تطغى عليها الغرائز الحيوانية، لأن هذا الطور هو طور تنبّهها ويقظتها.

راعى الإسلام – وهو دين الفطرة – كل ذلك فندب إلى الزواج، وحضّ عليه وسمّاه إحصانًا، وشرع له من الأحكام ما هو أقرب إلى التيسير والفطرة والتسامح، كلّ ذلك

ليحفظ على الشاب والشابّة دينهما وعرضهما ويضبط عليهما عواطفهما فلا تمتدّ العين إلى محرم، ولا تهفو النفس إلى محظور، ولا يجاوزان بالفطرة حدود الله.

ولو أننا وقفنا عند حدود الله، ويسّرنا ما عسرته العوائد من أمور الزواج، لما وقعنا في هذه المشكلة، ولكننا عسرنا اليسير، وحكمنا العوائد، والعجائز القواعد، في مسألة خطيرة كهذه، فأصبح الزواج الذي جعله الله سكنًا وألفة ورحمة – سبيلًا للقلق والبلاء والشقاء، وأصبح اللقاء الذي جعله الله عمارة بيت وبناء أسرة – خرابًا لبيتين بما فرضته العوائد من مغالاة في المهور، وتفنّن في النفقات والمغارم.

هذه العوائد بدّلت حكم الله، ونسخت سنّة رسوله، فأصبح الزوج لا ينظر من الزوجة إلى دينها وحسبها وجمالها، وإنما ينظر إلى شيء واحد... إلى مالها، فلتكن من خضراء الدمن، ولتكن دميمة الخلقة، كلّ ذلك لا يضيرها عند الزوج الطامع إذا كان لها مال، وولي الزوجة لا ينظر من خاطب بنته إلى أصله ودينه وأخلاقه، وإنما ينظر إلى شيء واحد... إلى ماله وما يقدّمه من المهر الغالي والحلي النفيس، وبعد هذا لا نعجب إذا رأينا كلّ زواج يبتدئ بهذا الاعتبار، ينتهي بالطلاق والعدواة والخصام بعد أشهر وأيام.

إن الصدقات التي يتغالى فيها هؤلاء الحمقى يكتفي فيها الإسلام بأقل متموّل، وقد زوّج رسول الله ﷺ مسلمة مؤمنة على أن يعلمها زوجها سورًا من القرآن، واكتفى في تزويج أخرى بخاتم من حديد (لو وُجد) ليرشد إلى أن المال ليس له من الاعتبار في باب الزواج إلا ما لخاتم الحديد.

إن مقاصد الإسلام في هذه السنّة أعلى من كل ما يعمله الناس، فهو يرمي بما شرع إلى بناء البيوت على المحبة والتعاون على تربية النسل وتعليمه وتقوية الأمة به.

وعلى هذا فالرجل الذي يُزوّج ابنته على هذا الأصل الواهي، ولا يراعي في زوج بنته إلّا جانب المال، رجل لا عقل له ولا ضمير، فقد يُفلس ذلك الزوج، ويرجع على صداق زوجته وثروتها حتى يفلسا معًا، ويكون عاقبة أمرهما الطلاق، وكم رأينا من غني زوّج بنته بسكّير لما قدّم من حُلي وساق من مهر، فعاشت بنته في نكد، ولم تتمتّع بزوج ولا ولد؛ وكم رأينا مَن باع داره التي تُظلّه وتُظلّ أطفاله لإهداء بنت من بناته إلى زوجها، فلما جاء دور الثانية لم يجد، ووجد الشيطان فسوّل له أن يعضلها حتى تموت.

هذه بعض الموبقات التي قرّرتها العادة الفاسدة في مجتمعنا، فأدّت إلى بقاء الشبّان والشّابات أعزابًا ساخطين على الحياة متبرمين بها.

ثم ماذا كانت العاقبة؟ فساد أخلاق وتهوّر في الفسق وأول الغيث قطر.

أيها الآباء! يسّروا ولا تعسروا! وقدّروا لهذه الحالة عواقبها وارجعوا إلى سماحة الدين ويسره، وإلى بساطة الفطرة ولينها. إن لبناتكم مزاحمات في السوق على أبنائكم، وإن معهن من الإغراء والفنون ما يضمن لهنّ الغلبة في الميدان؛ فحذار أن يغلب ضعفهن قوّتكم، وإن هذه الحرب التي أفنت ملايين من الشبّان، أبقت عديدهم من النساء، وإنهن يُجلن الآراء والأعين في مستعمرات من الشبّان، أو في شبّان من المستعمرات، وإنهن مسلّحات بأفتك من أسلحة الحرب، فحذار أن يكون شبابنا فرائس هذا الاستعمار الضعيف القوي.

إنكم لا تغالبون الطبيعة البشرية إلا غلبتكم، ولا تشادّون سنن الله إلا قهرتكم وإن الدواء في أيديكم، فيسّروا ولا تعسروا.

أيها الشبّان! إنكم لا تخدمون وطنكم وأمّتكم بأشرف من أن تتزوّجوا، فيصبح لكم عرضٌ تدافعون عنه، وزوجات تحامون عنهن، وأولاد يوسعون الآمال، هنالك تتدربون على المسؤوليات، وتشعرون بها، وتعظم الحياة في أعينكم، وبذلك تزداد القومية قوة في نفوسكم، إن الزوجة والأولاد حبال تربط الوطني بوطنه، وتزيد في إيمانه، وإن الإعراض عن الزواج فرار من أعظم مسؤولية في الحياة، ولمن تُخدمُ الأوطان؟ إذا لم يكن ذلك لحماية من على ظهرها من أولاد وحُرَم، ومن في بطنها من رفات ورمم.

قد كان أجدادكم العرب يضعون نساءهم وذراريهم خلف ظهورهم في ساعة اللقاء لئلّا يفرّوا... وهذا هو الحفاظ.

من مشاكلنا الاجتماعية (2)

الطلاق*

الطلاق حلّ عقدة، وبتّ حبال، وتمزيق شمل، وزيال خليط، وانفضاض سامر، فيه كلّ ما في هذه المركبات الإضافية التي استعملها شعراء العرب، وجرت في آدابهم العاطفية مجرى الأمثال، من التياع وحرارة، وحسرة ومرارة، ويزيد عليها جميعًا بمعنى آخر، وهو ما يصحبه من الحقد والبغض والتألّم والتظلّم.

لهذه الملابسات التي هي من مقتضيات الفطر السليمة، والطباع الرقيقة، شرعه الإسلام مقيدًا بقيود فطرية حكيمة، وقيود شرعية قويمة، اعتمد في تنفيذها بعد فهم المراد منها على إيمان المؤمن، وشرع له من المخففات ما يهون وقعه كالتمتيع ومدّ الأمل بالمراجعة، وتوسيع العصمة إلى الثلاث، حتى تُمكن القيئة إلى العشرة؛ وما وصّفه في القرآن بالسراح الجميل والتسريح بالإحسان، إلا تلطيف إلهي في أسلوب معجز يبعث في النفوس المؤمنة نفحات تُلطف وما تزال تلطف من غلظ الإحساس وعرام الحيوانية حتى يصير الطلاق «عملية بلا ألم».

والزواج عقد بين قلبين، ووصل بين نفسين، ومزج بين روحين – وفي الأخير – تقريب بين جسمين، فإذا تراخت عُراه بين القلبين ضاعت حكمة الله في السكون والرحمة والعطف، وهنا يدخل العقلُ مصلحًا بلغة المصلحة والتعاون والإحسان، وشفاعة النسل (إن كان)، فإذا زاغت الفطرة من أحد الزوجين عن محورها، أو طغت الغرائز الحيوانية على الفضائل الإنسانية في أحدهما أو كليهما، ولم يقم العقل وحده أو مع الحكمين، بإصلاح ذات البين، فالله أرحم من أن يكلف عباده تحمُّل هذا النوع من العذاب النفسي، وهو الجمع بين قلبين لم يأتلفا، وطبعين لم يتّحدا، وروحين لم يتعارفا؛ لذلك شرع لهما الطلاق

* نشرت في العدد 7 من جريدة «البصائر»، 19 سبتمبر سنة 1947.

ليستريح إليه من ضاق ذرعًا بصاحبه ضيقًا معقولًا بدواعيه وأسبابه؛ ولما كان من بعض أسباب الطلاق ما يزول فتتجاوب النفسان من جديد، وتتراجعان الحنين إلى العشرة، شرع الإسلام تلك الملطفات التي ذكرنا بعضها، والتي تُبقي على أصل الصلة، وتحفظ «خط الرجعة».

جهل المسلمون حقائق دينهم، وجهلوا الحكم المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء لأخذهم إياه من كتب تُعلّم الأحكام ولا تُبيّن الحِكَم، فأثر ذلك في نفوس المتفقهة – وهم مرجعُ العامة في سياسة الإفتاء – آثارًا سيّئة، منها اعتبار تلك الأحكام تعبدية تُحفظ ألفاظها، ولا يتحرّك الفكر في التماس عللها، وطلب حكمها، وتعرف مقاصد الإسلام منها، وتصفّح وجوه المصلحة والمفسدة فيها.

أنا لم أسمع مدةَ دراستي للفقه في بعض تلك الكتب إلا كلمتين تثيران في النفس شيئًا من الإحساس الحي، وتنبّهان على خيال من الحكمة، وتبثّان في المشاعر بصيصًا من النور، إحداهما في باب النكاح، وهي قولهم: «النكاح مبنيٌّ على المكارمة»، والثانية في باب الطلاق، وهي تناقلهم لأثر «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

ولو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن، ومن السنّة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلّين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلّتها، وتبيّن حكمة الشارع منها، لكان فقههم أكمل، وآثاره الحسنة في نفوسهم أظهر، ولكانت سلطتهم على المستفتين من العامة أمتن وأنفذ، ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى.

إن من يأخذ فقه الطلاق من آية: ﴿الطلاق مرتان، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾، ومما بعدها من الآيات الآمرة بالوقوف عند حدود الله، الناهية عن تعديها، أو من آية: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ على الموسع قدرهُ، وعلى المقتر قدرُه﴾؛ أو من آية الحكمين ووعد الله بالتوفيق عند الإصلاح، وبالإغناء من واسع فضله عند التفرّق؛ أو من آية تخيير النبي أزواجه بين حالين: أحدهما التمتيع والسراح الجميل، مَن أخذَ فقه الطلاق من هذا المنبع العذب يعلم أيّ حكم مبثوثة تحت كل كلمة وكل جملة، ومن تفقه هذا الفقه ونشره في الناس يبعد جدًّا أن يتلاعب بتلك العقدة الإلهية التي عقدها الله بين الزوجين، فيضعها في موضعها المعروف بين المسلمين الآن.

هذا الجمود في الفقه والفقهاء، وذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة، هما اللذان سهّلا على المسلمين تعدّي حدود الله في الطلاق، وأفضيا بهم إلى هذه الفوضى الفاشية في البيوت، وإلى ارتفاع الثقة بين الأزواج والزوجات، وزاد الطين

بلة وضْعٌ منحرف لمكان الزوجة من زوجها، حتى أصبح متخلخلًا متزلزلًا لا استقرار له، وما جاء هذا التخلخل إلا من سوء فهم من الرجل، انبنى عليه سوء تصرّف منه في الحق الذي خوّله الشارع، وهو أنه يملك العصمة، وما جاء سوء الفهم إلا من سوء التفهيم من الفقيه؛ فالفقيه لا يعرفُ إلا أن العصمة بيد الزوج، لأنه لا يجد في كتب الفقه إلا هذا، وهو حقٌّ في أصل الشريعة، ولكن الإسلام لا يُعطي هذه الحقوق أو هذه الامتيازات إلا للمسلم الصحيح الإسلام، القويّ الإيمان. فهو يكل إليه عهدًا ويستحفظه على أمانة، اعتمادًا على رشده، وثقة بإيمانه، أما إعطاء هذه الامتيازات إلى الجاهلين المتحلّلين من قيود الإسلام فهو لا يقلّ شناعة وسوء أثر عن إعطاء السلاح للمجانين.

* * *

يخرج الرجل إلى السوق، أو يجلس في المقهى، ويختلف مع آخر في شأن جليل أو حقير فيحلف أحدهما أو كلاهما بالطلاق حانثًا فتكون النتيجة خراب بيت، وتمزيق أسرة، وتشريد بنين.

ويتناقش آخر مع صهره في زيارة أو استزارة فيحلف أحدهما أو كلاهما بالطلاق، وتكون النتيجة تقطيع أرحام، وتكوين فتنة.

ويتنازع اثنان الحديث في السياسة أو التفضيل بين شخصين أو في الغيم والصحو، فتجري ألفاظ الطلاق متناثرة متعددة، كأنها لازمةُ الحديث، وكأن الكثير منهم لم يتزوّج إلا ليجعل الزوجة أداة يمين، أو ليصدقه الناس حين يحلف لعلمهم أنه متزوّج.

وكثيرًا ما تطلق الزوجة بهذه الأيمان والالتزامات العابثة، وهي لا تعلم من ذلك شيئًا ولم تتسبّب فيه.

وكثيرًا ما تكون آمنة في بيتها سعيدة بزوجيتها، فتفاجأ بالطلاق من زوج أحمق مأفون، لخلاف شجر بينه وبين جار أو بائع أو مشتر على أتفه الأسباب.

أيها المسلمون: إن عقدة الزواج عقدة مؤكدة، يحافظ عليها الأحرار، ويتلاعب بها الفجّار، وإن العصمة امتياز لرجالكم، ما لم تطغوا فيه وتظلموا، فإذا طغيتم فيه وجُرتم عن القصد، كما هي حالتكم اليوم، انتزعه منكم القضاء الإسلامي العادل لو كان. فإذا لم يكن عاقبكم الله بعذاب الخزي.

ما هذه الفوضى وهذا الاضطراب إلا عقوبة من الله لكم، وغيرة منه على أحكامه أن تتولوها بالهوى المطاع، والجهل القالب للأوضاع.

أيها المسلمون: إنه لا أشقى من ابن المطلقة، وإن أباه يُشقيه أولًا، ويشقى به أخيرًا، فإذا ربيَ في حضن أمّه المطلقة شقي ببعده عن أبيه، وشقي أبوه بما تغرسه أمّه في نفسه من بغض له وحقد عليه.

إن الأمة لا تنعم بأطفالها صغارًا، ولا تنتفع بهم كبارًا، إلا إذا نشأوا متقلبين في أحضان الآباء والأمهات، متلقّين لدروس العطف والحنان من قلبين متعاطفين، لا من قلب واحد.

ليت شعري أيدري المتساهلون في الطلاق ماذا جنوا على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى أمّتهم؟

من مشاكلنا الاجتماعية (3)

أعراس الشيطان*

كنّا نفهم أن الشيطان يطوّف ما يطوّف ثم يأوي إلى قلوب أوليائه، لينفث فيها الشر، ويزيّن لها معصية الله، ويحرّكها إلى الفساد والمنكر، ويذكرها بسننه المنسية لتتوب إليه من إهمالها وإضاعتها؛ وما كنّا نعلم أن للشيطان مرابعَ خاصة لا يبرحها في فصلين من السنة، ومعظمها في «العمالة الوهرانية»، وما ذلك لطيب في هوائها، أو عذوبة في مائها، أو اعتدال في جوّها، فالشيطان غني عن هذا كله، ولا يعبأ بهذا كله، وإنما ذلك للذة يجدها الشيطان في هواها... وسهولة انقياد يجدها في أوليائه بها، وقابلية للتسويل والتزيّن قلّما يجدها في غيرهم من رعاياه؛ وصدق الله العظيم، فإن الشياطين لا تتنزَّلُ إلا على كل أفّاك أثيم.

والشيطان حقيقة روحية، لا تدرك بالحواس، ولا تُعرف بالحدود، ولا تُقاس بالموازين البشرية؛ وإنما نعرفه بآثاره في أوليائه، من القابلية للشر والفساد، والاستجابة للمنكر والباطل، والتهوّر في الفسوق والعصيان، والمسارعة إلى المساخط، والعكوف على الضلال، وسرعة التلقّي لوحي الشيطان وتلبيسه، والمحادة لله ورسوله فيما أمرا به أو نهيا عنه.

ويجتمع في مجموع صفاته أنه درب مفتن متمرّس بسلائل آدم، خالي الذرع من الهم إلا بهم، من يوم قال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾، فهو يتفنّن في تزيين الفواحش لهم، ويعرضها عليهم مزركشة ذات تهاويل، ويضع الأسماء على غير مسمّياتها، ليغرّ بالزركشة ويغري بالاسم، فيضع للأغرار من أتباعه اسم الدين على ما ينقض الدين ويهدمه، واسم الخير على ما يمحو الخير ويعدمه، ويوحي إلى أوليائه بالفواحش مغيّرة العناوين، فيأتونها مبتدرين، ويجترحونها مخلصين، كما يأتي المؤمن القانت فرضَ ربّه، ويستقبل أمره.

---

* نشرت في العدد 95 من جريدة «البصائر»، 14 نوفمبر سنة 1949.

ولكن يبدو لنا أن الشيطان المكلّف بالعمالة الوهرانية بليد القريحة، جامد الفكر، خامد الذوق، جافي الطبع، كثيف الحسّ، خشن المسّ، بدوي النزعة، وحشي الغريزة، فكلّ ما يأمر به أولياءه وأتباعه فهو من جنس طبعه، سمج غث خال من الجمال والفن والذوق، وقد عهِدنا الشيطان «المتمدن» لطيف الإحساس، فنيّ الذوق، وعهدنا أعماله فنية الأسلوب فاتنة المظهر؛ والفتنة هي سلاح الشيطان الأحدّ، يكسو بها أعماله فيصبي الحلماء، ويستنزل النسّاك إلى مواطن الفتاك؛ أما هذه الأعمال التي نشاهدها من أولياء الشيطان في عمالة وهران فهي سخيفة باردة حيوانية وحشية.

* * *

هذه «الزرد» التي تقام في طول العمالة الوهرانية وعرضها هي أعراس الشيطان وولائمه، وحفلاته ومواسمه، وكلّ ما يقع فيها من البداية إلى النهاية كله رجس من عمل الشيطان، وكلّ داعٍ إليها، أو معين عليها، أو مكثر لسوادها فهو من أعوان الشيطان؛ ألم ترَ إلى ما يركب فيها من فواحش ومحرمات؟ وما يُهتك فيها من أعراض وحرمات؟ كلّ ذلك مما يأمر به الشيطان «البدوي»، وكلّ ذلك مما ذكرنا به القرآن، وبيّن لنا أنه من أمره ووعده، وتزيينه وإغوائه.

كلّما انتصف فصل الربيع من كل سنة تداعى أولياء الشيطان في كل بقعة من هذه العمالة إلى زردة يُقيمونها على وثن معروف من أوثانهم، يسوّله لهم الشيطان وليًّا صالحًا، بل يصوّره لهم إلهًا متصرفًا في الكون، متصرفًا في النفع والضرّ والرزق والأجل بين عباد الله، وقد يكون صاحب القبر رجلًا صالحًا، فما علاقة هذه الزرد بصلاحه؟ وما مكانها في الدين؟ وهل يرضى بها لو كان حيًّا وكان صالحًا الصلاح الشرعي؟ وقد كانت هذه الزرد تقام في أيام الجدوب للاستسقاء غير المشروع، فأصبحت عادة مستحكمة، وشرعة محكمة، وعبادة موقوتة، يتقرّب بها هؤلاء المبتدعة إلى أوثانهم في أوقات الجدوب والغيوث على السواء؛ يدعوهم إليها شيطانهم في النصف الأخير من كل ربيع، فإذا جاء الغيث نسبوه إلى أوثانهم، وإذا كان الجدب نسبوه إلى الله، عكس ما قال الله وحكم؛ ثم إذا جاء الصيف فَاءُوا إلى الأعمال الصيفية مضطرين، فإذا أقبل الخريف عادوا إلى تلك العادة النكراء فأنفقوا فيها كلّ ما جمعوه، وتداينوا بالربا المضاعف بما لا تقوم به ذممهم ولا أموالهم؛ فإذا ثَقُل الدين وألحّ الدائن، باع من يملك قطعة أرض أرضه، وباع من يملك دابة دابته، وتلك هي الغاية التي يعمل لها الشيطانان، شيطان الجن، وشيطان الاستعمار!..

جُلْ ما شئت في عمالة وهران في النصف الأخير من الربيع، والنصف الأول من الخريف، فإنك تسمع في كل سوق أذانًا بزردة، وترى في كل طريق حركة إلى زردة، وركابًا تشد إلى وعدة.

وسرْ ما شئت في جميع الأوقات، وفي جميع طرق المواصلات ترَ القبابَ البيضاء لائحة في جميع الثنايا والآكام ورؤوس الجبال، وسلْ تجد القليل منها منسوبًا إلى معروف من أجداد القبائل، وتجد الأقلّ مجهولًا، والكثرة منسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني. واسأل الحقيقة تجبك عن نفسها بأن الكثير من هذه القباب إنما بناها المعمّرون الأوربيون في أطراف مزارعهم الواسعة، بعد ما عرفوا افتتان هؤلاء المجانين بالقباب، واحترامهم لها، وتقديسهم للشيخ عبد القادر الجيلاني؛ فعلوا ذلك لحماية مزارعهم من السرقة والإتلاف. فكل معمر يَبني قبة أو قبّتين من هذا النوع يأمن على مزارعه السرقة، ويستغني عن الحرّاس ونفقات الحراسة، ثم يترك لهؤلاء العميان – الذين خسروا دينهم ودنياهم – إقامة المواسم عليها في كل سنة، وإنفاق النفقات الطائلة في النذور لها وتعاهدها بالتبييض والإصلاح، وقد يحضر المعمر معهم الزردة، ويشاركهم في ذبح القرابين، ليقولوا عنه إنه محبّ في الأولياء خادم لهم، حتى إذا تمكّن من غرس هذه العقيدة في نفوسهم راغ عليهم نزعًا للأرض من أيديهم، وإجلاء لهم عنها، وبهذه الوسيلة الشيطانية استولى المعمرون على تلك الأراضي الخصبة التي أحالوها إلى جنات، زيادة على الوسائل الكثيرة التي انتزعوا بها الأرض من أهلها.

وكأن هؤلاء القوم يعتقدون أن أرواح الأولياء كالثعابين والحيات، تتخذ من الحجارة المجموعة مقرًّا وملجأً، فكلّما وجدوا حجارة مجموعة اعتقدوا أنها مباءة لولي واتخذوها مزارًا. ولقد مررتُ في إحدى جولاتي في تلك المقاطعة بقطعة أرض موات، كأنها مقبرة أموات، مرصّعة بالحجارة، مغطاة بالسدر والدوم، تحفها قطع متجاورات، غُرست زيتونًا وكرومًا وفواكه شتّى، فكأن تلك القطعة من بينها جنة الرجاز التي تخيّلها أبو العلاء المعرّي في رسالة الغفران؛ فشهدت كل واحدة بصاحبها، ثم مررتُ بعد سنة بتلك القطعة، فدلّني تبدّل الأرض غير الأرض على أن صاحبها الأول قامت قيامته، ووجدت تلك الحجارة قد رُكمت على حافة الطريق، ثم مررت بها مرة أخرى في تلك السنة فإذا تلك الحجارة المركومة قد رشّت بالجير الأبيض، وإذا فيها كوى للبخور والشمع، قلت، سبحان من يحيي قلوبًا ويميت قلوبًا، سبحان من جعل التوحيد مفتاح السعادة في الدارين.

ولقد ماتتْ هذه العوائد الشيطانية قبل الحرب الأخيرة أو كادت تموت، بتأثير الحركة الإصلاحية المطهّرة للعقائد، ثم قضي عليها بتأثّر الناس بالحرب ولأوائها، وقد عادت في السنتين الأخيرتين إلى ما كانت عليه، ودعا داعي الشيطان إليها فأسمع، وكأنّما أذن في

القانتين بصلاة، أو ثوب في المستطيعين بحجّ، فإذا هم في اليوم الموعود مهطعون إلى الداعي، رجالًا ونساءً وأطفالًا، يُزجون الرواحل، ويسوقون القرابين، ويحملون الأدوات، تراهم فتقول إن القوم صُبِّحوا بغارة، تسيل بهم الطرق، وتغصّ بهم الفجاج، حتى إذا وصلوا إلى الوثن نُصبت الخيام، وسالت الأباطح بالمنكرات والآثام.

وإن لعودة هذه المنكرات لسببًا جديدًا غير العقيدة، فقد ضعفت، وغير المنفعة المادية لدعاة الشيطان، فقد نزرت، وإنما هو تنشيط الحكومة لها، وتحريضها على إحيائها، لأن في بقائها قوّة للاستعمار، ومقاومة للحركة الإصلاحية، وإلهاء لرجال الإصلاح عن البناء والإصلاح، وإنا – إن شاء الله – لهذه المكائد لمتفطنون، وإنا على إحباطها لعاملون، وإنا للحديث عن هذه المخزيات لعائدون.

* * *

يا قومنا، أجيبوا داعي الله، ولا تجيبوا داعيَ الشيطان؛ يا قومنا إن أصول هذه المنكرات مَفسدة للعقيدة، وإن فروعها مُفسدة للعقل والمال، وإنكم مسؤولون عند الله عن جميع ذلك؛ يا قومنا إنكم تنفقون هذه الأموال في حرام وإن الذبائح التي تذبحونها حرام لا يحلّ أكلها، لأنها مما أهل به لغير الله؛ فمن أفتاكم بغير هذا فهو مفتي الشيطان، لا مفتي القرآن.

من مشاكلنا الاجتماعية (4)

الصداق... وهل له حد؟*

من أمراضنا الاجتماعية التي تنشر في أوساطنا الفساد والفتنة، وتُعجّل بها إلى الدمار والفناء – عادةً – المغالاة في المهور، وما يقابلها من المغالاة في الشورة[1]؛ وقد أفضت بنا العوائد السيّئة فيها إلى سلوك سبيل منحرف عمّا تقتضيه الحكمة، وعما تقتضيه المصلحة، وهو تنزّل الأغنياء للفقراء رفقًا بهم، وتيسيرًا عليهم، فأصبح الفقراء يتطاولون إلى مراتب الأغنياء ويقلدونهم، تشبّهًا بهم، ومجاراة لهم، والضعيف إذا جارى القوي انبتّ فهلك.

وقد كانت هذه القضية – وما زالت – أهمّ ما تضمنه منهاجنا في الإصلاح الاجتماعي، فعالجناها بالترغيب والترهيب، وبيان ما تقتضيه الحكمة الشرعية، وما يقتضيه الحكم الشرعي: تناولناها في الخطب الجمعية، وفي دروس التفسير والحديث، وفي المحاضرات العامة، وفي المقالات المكتوبة؛ وحملنا الحملات الصادقة على العوائد التي لابستها فأفسدتها، حتى صيّرت الزواج الذي هو ركن الحياة، أعسر شيء في الحياة، وبيّنا بالشواهد الواقعية ما تجرّه هذه الحالة على الأمة – إذا تمادت – من وخامة العاقبة وسوء المصير، ولكن أعمالنا في هذه القضية لا تظهر نتائجها الكاملة إلا في جيل يكون أقوى إرادة من هذا الجيل الذي ملكت العوائد عليه أمره، فأعمته عن مصالحه، وأفسدت عليه دينه ودنياه؛ وإن المرأة لنعم العون في هذا الباب، وما دام عقل المرأة لم يرتق إلى معرفة الحقائق، وتبين وجوه المصالح، فإن أملنا في إصلاح هذه الحالة ضعيف والمرأة هي نصفنا «الضعيف القوي» شئنا أو أبينا.

وقد حاول بعض أهل الشعور الحي نوعًا من التطبيق العملي لإصلاح هذه القضية، في منطقة مخصوصة تجمعها وحدة قبلية، فحدّدوا للمهر مبلغًا يستوي فيه الفقير والغني، بلا

---

* نشرت في العدد 123 من جريدة «البصائر»، 12 جوان سنة 1950.

1) الشُّورة: ما تُجَهَّز به العروس من ثياب وأثاث.

نقص فيه، ولا زيادة عليه، ولكنهم غفلوا عن أمرين: الأول أنهم مهما هبطوا بالمبلغ المحدود فإن في الفقراء من لا تصل قدرته إليه، فيصبح هذا التحديد إرهاقًا له وتعنيتًا، والثاني إن إصلاحًا مثل هذا لا يتم إلا إذا سبقه إصلاح في الأخلاق، وإصلاح في التربية، وتقوية للوازع الديني في النفوس، حتى يتغلّب على العوائد المستحكمة؛ ولو أنهم وضعوا حدًّا أعلى للأغنياء بعد إقناعهم بالتزامه، وتركوا للفقراء مجالًا واسعًا يبتدئ من الواحد وينتهي إلى العشرة مثلًا، ليقف كل فقير عند الدرجة التي تنتهي إليها قدرته، ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرًا وأحسن تأويلًا، ولكان أقرب إلى النظرة العمرية في إيقاف المغالاة عند حد.

وقد سُئلنا أن نكتب كلمة في هذا الموضوع تبيّن الحكم الشرعي على وجهه وتجلي الحكمة الشرعية على حقيقتها، فكتبنا هذه الكلمة في بيان الحكم العام، في الحالة العامة، ولم نوجّهها إلى جماعة خاصة، وإنما وجّهناها إلى الأمة كلها لأن مرضها واحد، ولأننا نراعي في أعمالنا – إن شاء الله – الفائدة العامة.

* * *

الصداق نحلة شرعية مشروطة في عقدة النكاح، يعجلها الزوج للزوجة أو يعمر بها ذمّته إلى أجل؛ ولا نقول ما يقوله الفقهاء المسارعون إلى التعليلات السطحية التي لا تتفق مع الحكمة: إن الصداق عوض عن البضع أو ثمن له؛ فإن هذا التعليل يدخل بهذه العلاقة الشريفة في باب البيع والشراء والمعاوضات المادية؛ وحاشا لهذه الصلة الجليلة التي هي سبب بقاء النوع الإنساني أن تكون كصلة الثوب بمشتريه، أو صلة المتاع بمقتنيه! بل إن معناها أعلى وأجلّ؛ إنها إكرام من الرجل القوام، للمرأة الضعيفة، ووصلة بين قلبيهما، وتوثيق لعرى المحبّة بينهما، وتأنيس يسبق العشرة المستأنفة، وبريد يحمل البشرى بالقرب؛ فإذا أدخلناها في باب الأثمان والقيم لم يبقَ إلا أن نسمّي الزوجة بائعة، والزوج مشتريًا، والخاطب سمسارًا؛ وإننا نتلمّح من الحكمة الإلهية العليا العامة في الجنس كله أن الصداق في الإسلام جبر لما نقص المرأة من الميراث، فمن عدل الله أن نقص لها في ناحية، وزادها في ناحية، وكرمها فأعفاها من تكاليف النفقة في أطوارها الثلاثة، بنتًا وزوجًا وأمًّا؛ وهذه هي الحكمة التي ندمغ بها الطاعنين في الإسلام، الهازئين بأحكامه، المتعامين عن حِكَمه.

وليس للصداق في أصل الشريعة ونصوصها القطعية، وتطبيقاتها العملية، حد منصوص يوقف عنده لا في القلة ولا في الكثرة، وإنما هو موكول إلى أحوالهم في العسرة واليسرة، وطبقاتهم في الغنى والفقر، ولو كان له حد منصوص في القلة لما اختلف الأئمة في حدّه الأدنى، فقال مالك ثلاثة دراهم أو رُبع دينار؛ وقال أبو حنيفة عشرة دراهم؛ وقال غيرهما

خمسة؛ ولما اختلفت مداركهم في المقيس عليه ما هو؟ أهو ما يجب فيه القطع في السرقة؟ أم ما تجب فيه الزكاة في رأي بعض أئمة المالكية؟ وإن كان القياس في الرأيين واهيًا لخفاء أو لبعد العلة الجامعة بين المقيس وبين المقيس عليه.

ولو كان له حد منصوص في الكثرة لوقف عنده عمر، ولم يعزم على تحديده، وإن كانت الروايات لا تفيد أنه عزم على التحديد، وإنما نهى عن المغالاة فيه، فرواية أصحاب السنن لقول عمر: لا تغالوا في صدُقات النساء؛ وأن امرأة قالت له: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله تعالى يقول: وآتيتم إحداهن قنطارًا من الذهب (وهذا الحرف من قراءة ابن مسعود)، وأن عمر قال: امرأة أصابت، ورجل أخطأ.

فتسليم عمر للمرأة يدلّ على أنه لا حد للأكثر، وهو الحق، وهو الواقع ونهيه عن المغالاة سداد ونظر بالمصلحة، وتأديب للمغالين، وعمر خليفة مصلح حريص على حمل الأمة على القصد في كل شيء، وعلى عدم الاندفاع في التطوّر، وقد فاضت الأموال في عهده من الفيوء والمغانم؛ والمال المفاجئ عامل من عوامل سرعة التطوّر ومجاوزة حدود القصد؛ ومن نظر في وصاياه لعتبة بن غزوان في تخطيط البصرة، شهد ببعد نظره في بناء الأمة على أساس متين، ومن تأمّل نهيه عن المغالاة في الصداق، وعزمه على إلزام المطلق ثلاثًا في اللفظ، علم حرصه على أخلاق الأمة أن يدركها التحلّل والانهيار؛ وإنه لا يعزم تلك العزائم إلا حين يرى الناس تتايعوا[2] في أمر كانت لهم فيه أناة، كما قال هو في قضية الثلاث، ولله در عمر!

* * *

نرجع إلى الشواهد العلمية من فعل النبي ﷺ، وعمل أصحابه رضي الله عنهم، نجدها لا تدل على تحديد في الأدنى ولا في الأعلى، فهذا رسول الله ﷺ أصدقَ نساءَه كما في الصحيح اثنَيْ عشرة أوقية ونشًا، والأوقية أربعون درهمًا، والنش نصف الأوقية، فتلك خمسمائة درهم، وتزوّج عبد الرحمن بن عوف على نواة من ذهب، وأخبر النبي ﷺ بذلك فأقرّه، والنواة وزن معروف عندهم، قالوا في تفسيره إنه ربع النش، فهو خمسة دراهم.

وفي حديث الواهبة نفسها لرسول الله أنه قال لخاطبها: التمس ولو خاتمًا من حديد ثم زوّجه إياها بما معه من القرآن، يعني بأجرة تعليمها سورًا من القرآن سمّاهنّ.

2) التتابع بالياء المثناة معناه في المحسات السقوط وعدم التماسك.

أما خمسة الدراهم، وخمسمائة درهم، فهي مال معدود، ولكنه لا يقتضي التحديد للأقل ولا للأكثر، وأما أجرة التعليم فهي مال، ولكنه مجهول في قضية الواهبة، وأما خاتم الحديد فليس بذي بال، وكيفما قدّرت قيمته كانت أقلّ مما جعله الأئمة حدًّا أدنى، ورأينا فيه، وفهمنا لحكمته أنه رمز نبوي بعيد المغزى، عالي الإشارة، إلى أن ما يفتتن به الناس بمقتضى طبيعتهم من اعتبار المال في الزواج ليس مقصدًا شرعيًّا، وإن أحقر شيء مما يُسمّى مالًا كافٍ فيه؛ أما القصد الحكيم فهو من وراء ذلك: هو في الإحصان، وقمع الغرائز الحيوانية، وسكون القلب إلى القلب، وتحقيق حكمة الله في التناسل وتسلسل النوع، إلى غير ذلك من الحكم التي ليس منها المال، وإنما المال هنا جاذب مادي موصل يسدّ رغبة سطحية؛ وما أغلى صداق الواهبة في حكم العقل، إذ سيق إليها علمًا بسور من القرآن يزكيها، لا دراهم معدودة يُفنيها إنفاق يوم أو يومين، ولو وجد ذلك الخاطب خاتمًا من حديد فأصدقها إياه لانتقلت الحكمة إلى باب آخر، وهو إنزال الناس منازلهم في الفقر والغنى بحيث يتزوّج كل واحد بما يملك.

وقضية الواهبة – على كل حال – قضية عين، لا تقوم بها حجة، زيادة عن كونها خرجت مخرج التفسير، في أسلوب بليغ من التعبير، ومعتاد في كلام من أوتي جوامع الكلم، كقوله في أحاديث الحث على الصدقة: «ولو بظلف محرق» «ولو بفِرْسِنِ شاة» «ولو بشق تمرة».

هذا ولا ننسى أننا نستروح من كلمة الطَّوْل الذي جعله الله موجبًا للانتقال من نكاح الحرائر إلى نكاح الإماء، أن الصداق مال له بال بالنسبة إلى أحوال الرجال.

* * *

والخلاصة أن الشريعة المطّهرة الحكيمة لم تحدّد في الصداق حدًّا أدنى، ولا حدًّا أعلى، لأن الناس طبقات، فقراء وأغنياء وبين ذلك؛ فإذا انساقوا بالفطرة القويمة، والشريعة الحكيمة، وجروا على منازلهم في المجتمع، صلح أمرهم واستقامت لهم الحياة؛ وإذا زاغوا عن الفطرة، وحادوا عن الشريعة، وخرجت كل طبقة عن مداها المقدّر لها، هلكوا وشقوا.

والدين إنما يخاطب المؤمنين به، المتّبعين لأحكامه، المتأدبين بآدابه، الواقفين عند حدوده، فإذا ترك الأمر مطلقًا كالصداق فإنما يفعل ذلك اعتمادًا على إيمانهم وأمانتهم، وعرفانهم لما تقتضيه مصلحتهم، واعتبارهم للحِكَم قبل الأحكام.

وإذا صلح المجموع وكان بهذه المنزلة من فهم الدين ومعرفة مقاصده العامة، فبعيد أن يتورّط في العسر والإرهاق والحرج، وبعيد أن يتطاول الفقير إلى منزلة الغني فيقع الفساد في الأرض.

والدين مع هذا الإطلاق في الصداق، قد ندب الناس إلى التيسير، ونهاهم عن التشديد والتعسير، في الزواج والمهر، حتى تتيسّر إقامة هذه السنّة الفطرية على جميع الناس.

نحن لا نبدّل أحكام الله، ولا نقول بتحديد الصداق، ولكننا نقول ونكرّر القول: إن المغالاة في المهور أفضت بنا إلى مفسدة عظيمة، وهي كساد بناتنا وإعراض أبنائنا عن الزواج، واندفاعهم في رذائل يعين عليها الزمان والشيطان؛ فعلى المسلمين أن يذلّلوا هذه العقبات الواقعة في طريق زواج بناتهم وأبنائهم، وأن يقتلوا هذه العوائد الفاسدة المفسدة، وأن ييسّروا ولا يعسروا وأن يعتبروا في الزواج حسن الأخلاق، لا وفرة الصداق، وفي الزوجة الدين المتين، لا الجهاز الثمين.

فهرس الموضوعات

إهداء ..... - -
شكر وعرفان ..... - -
مقدّمة..... أ
الفصل الأوّل/ مرجعيات البحث ومرتكزاته
أولا/ المخاطِب (الشيخ محمد البشير الإبراهيمي) 06
ثانيا/مرجعية البحث وإجراءاته..... 11
1.مفهوم الحجاج..... 11
2.مفهوم النفي..... 20
3.حجاجية أسلوب النفي 22
الفصل الثّاني/حجاجية النفي في مقالات الإبراهيمي
عامل النفي (لا) 26
عامل النفي (لم)..... 33
عامل النفي (ما) 35
عامل النفي (ليس) 38
عامل النفي (غير)..... 40
خاتمة..... 44
قائمة المصادر والمراجع..... 46
الملحق 51
فهرس الموضوعات 70
الملخص ..... - -

الملخص:

تناول موضوعنا الموسوم بـ"حجاجية النفي في عيون البصائر "مجموعة مقالات من مشاكلنا الاجتماعية أنموذجا" دراسة لأهم أدوات النفي (لا، لم، ليس، غير، ما) التي استعملها البشير الإبراهيمي في مقالاته بهدف تحقيق الغرض الحجاجي، والذي يتمثل في إقناع المتلقي واستمالته والتأثير فيه، فبسبب الأوضاع المزرية التي آل إليها المجتمع الجزائري إبّان فترة الإستدمار الفرنسي، وتفشي الجهل بين أوساط الشباب _قبل الشيوخ_ لجأ محمد البشير الإبراهيمي إلى ضبط خطة ورسم إستراتيجية حجاجية تمثلت في استعمال عامل النفي لرد تلك الأفكار المزيفة التي زرعها المستدمِر في عقول البسطاء من الجزائريين (مثل ما يعرف بالزردة) فحمل الإبراهيمي على عاتقه هم إصلاح ما فسد في المجتمع الجزائري، واتخذ من اللغة والنفي وسيلة للتأثير.

Résumer

Le thème de notre travail de recherche est: la méthode argumentative de la négation chez le journal de Oyoun El BASSAIR, en l'occurrence certains articles concernant nos problèmes sociales vécus, en basant sur l'étude de l'utilisation des outils de négation tels que : non, ce n'est pas, rien, nepas… et les autres rapports utilisés par Mohamed El Bachir El Ibrahimi dans ses articles dans un but argumentatif. Et il se concentre sur l'impact de ces rapports et son influence pour atteindre le but principal qui est persuade le destinataire et arrive à lui convaincre. A cause des mauvaises situations que la société était vécue pendant la période coloniale sans oublier la prolifération de l'ignorance chez les jeunes algériens, Mohamed El Bachir El Ibrahimi a décidé d'ajuster un plan, et penser à une stratégie argumentative représentée à travers l'utilisation des facteurs de négation pour se battre les fausses idées écrites et dites par le colonisateur dans l'esprit de certains algériens. Pour cette raison primordiale, Mohamed El Bachir El Ibrahimi a pour objectif de réparer ce qu'il gâte par le colonisateur tout en utilisant la langue et la négation en tant qu'armes d'influence.